وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾

شرح الكلمات:

أنفُسكم: الأنفس جمعُ النفْس. ونفسُ الشيء: عينُه (أي ذاتُه) (الأقرب).

حفَدة: جمعُ الحافد وهو: الخادمُ؛ الناصرُ؛ التابعُ؛ ولدُ الولدِ (الأقرب).

الباطل: ضدُّ الحق (الأقرب).

التفسير: من خلال آيات عديدة وبطرق شتى ما زال الله تعالى يؤكد ضرورةَ أمرين هما نزول الوحي ونفي الشرك تأكيدًا يكشف أن كلا من الموضوعين وثيق الصلة بالآخر، وأن الواحد يدعم الآخرَ؛ حيث بيّن الله تعالى أنه بدون الوحي يصاب الإنسان بمرض فتاك كالشرك، وأن من مقتضى التوحيد الكامل أن يهدي الله تعالى عبادَه؛ وفيما يلي بيان ذلك.

إذا كان الإله إلـــهًا واحدًا فكيف يمكن أن يترك أمر هداية العباد في يد غيره. نعم، لو كان هناك أكثر من إله لترك الواحدُ مهمةَ الهداية للآخر مثلما يفعل الوالدان فيما يتعلق بتربية الأولاد حيث يعتمد الأب أحيانًا على الأم، ويحدث العكس أحيانًا أخرى. ولكن ما دام الخالق والمالك واحدًا فإلى من يوكل أمر الهدى؟ إنه لا بد أن يتولى بنفسه هداية الناس.

كما أن التوحيد يقتضي الكمال، ولكن خلق الناس بدون هدف وغاية منقصةٌ تتعارض مع عقيدة التوحيد، فإذا كان الإنسان لم يُخلَق إلا لغاية فلا بدَّ له من حياة بعد الموت، وبالتالي لا بد من نزول منهج من عند الله تعالى يجعل الإنسان صالحًا للعيش في تلك الحياة الخالدة. ومن أجل ذلك فقد ساق الله ﷻ في الآيات السابقة أدلة شتى على الحياة بعد الموت.

لقد ذكر الله تعالى موضوعي التوحيد والهدي السماوي باستمرار وبطرق مختلفة بحيث يدعم أحدُهما الآخرَ، مما زاد البيان قوةً وروعة بحيث اتضح تمامًا أن أركان العالم الروحاني يشدّ بعضها بعضًا كما تشدّ أجرامُ العالم المادي بعضُها بعضًا. وحيثما رأيتَ وجدتَ حقيقةً واحدةً ونظامًا واحدًا.

وفي هذه الآية أيضًا عاد الحديث مرة أخرى إلى تأكيد التوحيد، حيث نبّه الله تعالى أن اعتياد الناس احتكارَ المال والحكم يدل على أمرين:

الأمر الأول – وهو ما قد سبق بيانه – أن الإنسان يَكره بفطرته أن يُشرك في أمواله وسلطته أحدًا هو تحت حكمه، ولذلك يتطلب الأمر التدخُّلَ من قِبل قوة خارجية تغيّر هذا النظام الفاسد بنظام يقوم على مبدأ تَساوي البشر ويضمن للجميع حقوقهم.

والثاني هو توحيد البارئ، حيث يذكّر الله تعالى الإنسانَ أنه حين يخوّله نعمةً يسلّم أيضًا بملكيته المحددة لها، كما يجيز انتقال حقوقه بشأنها إلى أولاده بالوراثة؛ والإنسان حين يريد نقل خير أمواله، التي هي في الواقع منحة إلهية، فلا يمنحها إلا لأولاده، كما لا يعطي الآخرين الحقَّ في أن يعطوا أملاكه من يشاءون؛ فما لهذا الإنسان يقع في الباطل.. أي في الشرك، ويصبح ناكرًا لنعمه ﷻ؟ أما وكيف يحصل هذا النكران لنعم الله فقد ذُكر مفصَّلا في الآية التالية.

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٤﴾

التفسير: يقول الله تعالى إننا قد سلّمنا بحقهم في الوراثة ونقلِهم أموالَهم وسلطتهم إلى أولادهم أو لمن هو على صلة بهم، ولكنهم يردّون على صنيعنا هذا بأنهم يمنحون – في زعمهم – سلطتَنا وحُكمَنا لمن لم نعطه إياها أو لا نريد أن نعطيه. إن أموالهم وعقاراتهم هذه ليست مِلكًا لهم في الحقيقة، وإنما هي منحة

منا، ومع ذلك نمنح لهم حق التصرف فيها كما يحلو لهم وأن يعطوها من يشاءون، فكيف لا يكون لنا نحن إذًا حرية التصرف في أمر ديننا، بحيث نجعل مَن يشاء من عبادنا وارثًا للدين.

كما أشار الله تعالى في هذه الآية أن الشرك يوقف رقي الأمم أيضًا، لأن المشرك عندما يصرف اهتمامَه عن الله إلى ما لا يملك له نفعًا ولا ضرًّا فإنه لا ينتفع من التوسل إليه، وإنما يتضرر بكل تأكيد؛ إذ لم يتوسل إلى الله الذي كان بالفعل قادرًا على أن يعطيه النعم بكل أنواعها؛ وبالتالي يتوقف الرقي العقلي دومًا لدى الأمم المشركة، ويصاب تفكيرهم بخلل كبير جدًّا فيما يتعلق بأمور الدين. ولكن الأمم غير الوثنية لا تزال تحرز التقدم عقليًّا – رغم انحرافها عن الحق – لأنها لا تفتأ تفكر في تلك الذات التي هي منبع القوى كلها، فتصيب شيئًا من الحقائق من حين لآخر رغم حرمانها من الوحي والإلهام.

فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

التفسير: أي لا تسعوا لسنّ القوانين عما يخص ذات البارئ تعالى، إذ لا علمَ لكم بسعة قدرته ﷻ؛ فهو الذي سوف يمنح بنفسه السلطةَ الدينية مَن يشاء من عباده وبقدر ما يشاء، وسوف يهبها للذين يراهم كأولاد روحانيين له نظرًا إلى إخلاصهم وتفانيهم.

علمًا أنه في لغة الوحي قد سمِّي بعض الأنبياء أبناءً لله ﷻ ومثالـــه قول المسيح عليه السلام للحواريين: "فاذهبوا وتَلْمِذوا جميعَ الأمم، وعمِّدوهم باسم الأب والابن والروح القدس" (متى ٢٨: ١٩). فكلمة "الابن" هنا تعني أن الله تعالى قد اصطفى المسيح وجعَله وارثًا للملكوت السماوي.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى في قوله ﴿وقالوا اتخذ الرحمنُ ولدًا سبحانه بل عبادٌ مكرَمون﴾(الأنبياء: ٢٧).. أي يخطئ المشركون في قولهم بأن

الله اتخذ ولدًا له في الحقيقة، بل الذين يسميهم الله أبناءً له إنما هم عباده، وإنما المقصود بهذه التسمية أن الله يحبهم ويكرمهم. ولكن المؤسف أن بعض الجاهلين يغترّون بهذه الألقاب ويعتبرون عباد الله المتواضعين أبناء له حقًّا، بينما يهبّ بعضُ الأغبياء الآخرين ويطعنون في هذه الأسماء والألقاب.

وقد بين الله تعالى بقوله ﴿إن الله يعلَم وأنتم لا تعلَمون﴾ أن ما يستخدمه الله ﷻ من ألقاب وكلمات فإنه يرمز إلى بعض الحقائق التي لا تتنافى مع الصفات الإلهية الأخرى، ولكنكم أيها الأغبياء تستخدمون تلك الألقاب في المعنى الذي يدل على جهلكم المطلق، إذ لا يمتّ ما تقولونه إلى الحقيقة بصلة بتاتًا. وعلى سبيل المثال حين يطلق الله على عبد من عباده "ابن الله" فإنما يقصد به الإشارة إلى حبه الشديد لذلك العبد الطاهر، ولكن المشرك يعتبره ابنًا حقيقيًا لله تعالى وهكذا يحوِّل هذه الصلةَ الطاهرة بين الرب والعبد إلى صلة مادية، مما يمثّل إساءة إلى ذات البارئ تعالى، كما يحطّ من شأن هؤلاء المكرَمين؛ لأنهم باعتقادهم هذا ينكرون عظمتهم الحقيقية التي حصلت لهم بمعرفة الله والتضحية في سبيله تعالى، أما العظمة المادية التي يعزونها إليهم فهي موهومة كما لا تساوي أمام العظمة الروحانية شيئًا.

ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٦﴾

التفسير: لقد نبّه الله تعالى في الآية السالفة أن على الإنسان أن يقف عند الحد الذي يحدده الله تعالى في الأمور الروحانية وإلا ستزلّ قدمُه وتنحرف به بعيدًا عن جادة الصواب، كما أخبر الله ﷻ في الآية السالفة أنه حين يريد تكريم بعض

عباده المحبوبين ويطلق عليهم أسماء غير عادية فإنما يقصد بذلك عكس ما يقصده المشركون بإطلاق تلك الألقاب على بعض من مخلوقاته؛ أما في هذه الآية فضرب الله تعالى مثالاً يزيد الأمر جلاء فقال: هلا فكّرتم فيمن هو فريسةٌ للجشع والهوى ومقيد بأصفاد الأوهام والتقاليد القومية شأنَ العبد الذي لا يستطيع استغلال كفاءاته كما ينبغي لكونه مملوكًا لغيره.. فهل يمكن أن يتساوى هو ومن هو حر من قيود الأوهام والتقاليد القومية، ويستغل ما حباه الله به من قوًى وكفاءات في خدمة الإنسانية بحرية تامة سرًّا وعلانية؟ كلا. فلا شك- والحال هذه - أن الله سيكون في عون الذي يستغل قواه الموهوبة من عنده ﷻ في خدمة عباده؛ وبالتالي لا بد أن يكون النجاح حليفه هو.

وهذا المثال إشارة إلى شخص النبي ﷺ حيث أخبر الله أن هذا هو الإنسان الذي بإمكانه أن يرث نعم الله تعالى، ومهما استعمل الله تعالى في حقه من كلمات المدح والتكريم فهو أحق بها وأهلها.

وقد أشار بهذا المثال أيضًا إلى أنكم لا تشركون فيما خوّل الله لكم من نعم إلا أولادَكم وأُسركم فحسب، ولكن محمدًا ﷺ يُشرك العالم أجمع في نعم الله تعالى؛ فنجاحه مضمون وفشلكم أكيد.

ويمكن تفسير قوله تعالى ﴿سرًّا وجهرًا﴾ بثلاثة أوجه هي:

١- أن محمدًا ﷺ يسدي للإنسانية خدمةً خفية لا يراها الناس كالدعاء والاستغفار لهم، كما يخدمهم خدمة ظاهرة جلية مثل أخلاقه ﷺ الفاضلة التي كان يعاملهم بها والتي قد أشارت إليها السيدة خديجة رضي الله عنها في قولها الشهير: "كلا، والله ما يُخزيك اللهُ أبدًا. إنك لتصِل الرحِمَ، وتحمِل الكَلَّ، وتُكسب المعدومَ، وتَقري الضيفَ، وتُعين على نوائب الحق." (البخاري: كتاب الوحي، باب كيف كان بدء الوحي). والمراد من قولها "وتُكسب المعدوم" أنك تتحلى بتلك الأخلاق السامية التي قد اختفت من بين الناس.

٢- أنه ﷺ يعمل على خدمة الإنسانية ليلَ نهارَ، ولا يدّخر وسعًا في نفع البشرية غاضًّا الطرف عن راحته.

٣- أن خدماته ﷺ نوعان: نوع هو خافٍ أي لا يقدره الناسُ حق قدره لجهلهم إياه، مع أنه خدمة عظيمة كقيامه بتبليغ الحق لهم؛ ونوع ظاهرٌ باد يقدّره الناس ويعترفون به بلسانهم؛ ومثال ذلك أن شخصًا جاء النبي ﷺ وشكا إليه أن أبا جهل لا يرد له ماله، فخرج النبي ﷺ معه من فوره وطَرَقَ على أبي جهل بابه؛ فلما رأى النبيَّ ﷺ واقفًا أمامه أصيب بالذهول لأنه لم يتوقع مجيئه إليه إذ كان يؤذيه دائمًا، فسأله في حيرة: ما الذي وراءك؟ فقال النبي ﷺ: هل أكلتَ مالَه؟ قال: نعم. قال: أَعْطِه ماله على الفور ولا تؤذِه. قال: نعم، ورجع وقد مُلِئَ قلبه رعبًا وهيبةً، وردّ للغريب ماله. فلما شاع هذا الخبر بين القوم لاموا أبا جهل قائلين: ويلك يا جبانُ! تأمرنا بخلاف ما صنعتَ مع محمد! فقال: ويْحَكم! والله، خرجتُ إليه وإن فوق رأسه فَحْلاً من الإبل ثائرًا، ما رأيت مثلَ هامته ولا أنيابه لفحلٍ قط! والله لو أبيتُ لأكلني (السيرة النبوية لابن هشام: أمرُ الأراشي).

من الممكن أن تكون رؤية أبي جهل للبعير مع النبي ﷺ رؤيةَ كشف، بيدَ أنه ﷺ لم يُشر إلى ذلك قط؛ وقد يكون أبو جهل قد اختلق من عنده قصةَ البعير الفحل ليخفي عن زملائه الرعب الذي استولى عليه لدى قيام النبي ﷺ بتأييد الحق بهذه الصورة المذهلة.

هذا، وإن هذه الآية تتضمن أيضًا الإشارة إلى ضرورة يوم القيامة؛ ذلك أن بعض حسنات الإنسان تبقى خافية على الناس فلا يستطيعون أن يجازوه عليها بأي طريقة، فلذا من الضروري أن يكون هناك يوم يُكشف فيه للناس مثل هذه الأعمال وينال صاحبها جزاءها.

وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾

شرح الكلمات:

أبكمُ: بكِم يبكَم بَكْمًا: خرَس، فهو أبكَمُ (الأقرب).

كَلٌّ: الـكَلُّ: المصيبةُ؛ الثقيلُ لا خير فيه؛ العَيِّلُ والعيال؛ الثِقلُ؛ الضعيفُ. ويُطلَق الكَلُّ على الواحد وغيره (الأقرب).

مولى: المولى: المالكُ؛ المعتِقُ؛ الصاحبُ؛ الحليفُ؛ الوليُّ؛ الربُّ؛ المنعمُ؛ المحبُّ (الأقرب).

يوجِّهه: وجَّهه إليه في حاجة: أرسله فوجَّه إليه أي ذهَب.. لازمٌ ومتعدٍّ (الأقرب).

صراط: الصراط: الطريق (الأقرب).

التفسير: لقد بيّن الله تعالى من قبل بضرب المثال السالف أن الذي يتمتع بكفاءات وقدرات، ولا يقدر على استغلالها لكونه تحت سلطة الآخرين، فوجوده أو عدمه سواء؛ والآن قد زاد الله هذا المعنى إيضاحًا بضرب مثال آخر لعبدين: أحدهما أخرس لا خير فيه، إذ ليس هو بقادر على فعل أي خير حتى ينفع الآخرين بيده، كما لا يستطيع الكلام أيضًا حتى ينفعهم بلسانه بالوعظ والنصح على الأقل، وبالتالي صار عبئًا ثقيلاً على سيده، لأنه لا يأمره بشيء إلا وهو يفشل في إنجازه؛ وعلى النقيض هناك عبد آخر لدى هذا السيد يأمر الناسَ بالعدل وفق أوامر سيده، كما يسرّه بإنجاز كل مهمة يعهدها إليه، فلا شك أن

هذا العبد أفضل من الأول بكثير، وبينهما بون شاسع، ولا يمكن أن يعاملهما سيدهما معاملة واحدة.

هذه الآية أيضًا تعقد مقارنة بين النبي ﷺ وبين طائفة من الكفار، حيث يقول الله لهم: لقد صرتم بُكمًا لأن المعاصي بكل أنواعها كانت ولا تزال تُرتكب أمام أعينكم، فكان القوم يشركون بالله تعالى، ويعرضون صفاته عرضًا مشوَّهًا، ومع ذلك لزمتم الصمت، ولم ينبرِ منكم أحد لينهى هؤلاء عن الشرك والإساءة إلى الله مولاهم الحق؛ ولم يتصدَّ لهم منكم أحد بقول الحق دفاعًا عن سيده سبحانه وتعالى إلا محمد ﷺ. فإذا كنتم قد فشلتم في أمر الناس بالمعروف والعدل فكان من واجبكم أن تتمسكوا بأنفسكم بالخير والعدل على الأقل، وتعلنوا من خلال أعمالكم الحسنة عن سبوحية الله وبراءته من العيوب. وإذا كنتم غير قادرين على نهي الآخرين عن الشرك فكان من واجبكم أن تنتهوا عنه بأنفسكم، ولكنكم لم تفعلوا ذلك أيضًا. ولنَدَعْ أمرَ الدين جانبًا، فيا ليتكم تقدمتم في المجال الدنيوي بشكل ملحوظ طالما كنتم مهتمين فقط بمتاع الحياة الدنيا؛ ولكنكم بدلاً من أن تكونوا عونًا للآخرين أصبحتم عبئًا ثقيلاً عليهم؛ ولكن محمدًا – على النقيض – يأمر الناس بالعدل والمعروف، كما هو بنفسه سائر على الصراط المستقيم.. أي أنه كامل من جميع النواحي. فهلا أخبرتموني مَن أحقُّ بنصرتنا، أنتم أم هو؟

والخلاصة أن الله تعالى قد عقد في هاتين الآيتين مقارنةً بين النبي ﷺ وطائفتين من الكفار؛ فالطائفة الأولى منهم كانوا عبيدًا للتقاليد والأوهام.. كانوا يريدون القيام بأعمال الخير ولكنهم لم يفعلوها خوفًا من القوم. أما الطائفة الأخرى منهم فإنها كانت أسيرة في قبضة التقاليد والأوهام، كما كانت كفاءاتهم الطبيعية لفعل الخير قد صارت ممسوخة مطموسة لدرجة أنهم لن يفعلوا الخير ولو تحرروا من قيود التقاليد والأوهام. لقد صاروا عبئًا على الله تعالى، إذ يسبب وجودُهم الإساءةَ إلى سبوحية الله وقدوسيته.

ولكن محمدًا ﷺ ليس عبدًا لأحد غير الله تعالى، كما أنه قد سخّر كلَّ ما أُوتيَ من قدرات وكفاءات في نفع الإنسانية، ثم إنه مزوَّد بملكات روحانية خارقة تساعده على التحلي بمكارم الأخلاق، كما يدعو الآخرين إلى الهدى. فهل، يا تُرى، سيقع الخيار الإلهي على الذي عنده الكفاءة والاستعداد، والذي يعمل جاهدًا لنصرة دين الله، أم على الذي يملك هذه القدرات، ولكنه يهدرها سدًى لأنه غير قادر على استغلالها في سبيل الله، إذ لا يستطيع الصمود أمام تقاليد القوم، أو أنه لا يملك أي كفاءة أصلاً، ولا هو حر من قيود التقاليد والطقوس.

وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٨﴾

شرح الكلمات:

الساعة: راجع شرح الآية رقم ٦٢.

لَمْح البصر: لَمَحَ البصرُ يلمَح لَمْحًا: امتدّ إلى الشيء. لَمح الرجلُ الشيءَ: أبصره بنظر خفيف أو اختلس النظرَ. ولَمح الشيءَ بالبصر: صوَّبه إليه (الأقرب).

شيء: مصدرُ شاء. شاءه يشاء شيئًا: أراده. وشاء الله الشيءَ: قدَّره. الشيءُ: ما يصح أن يُعلَم ويُخبَر عنه. وهو مذكَّر يُطلَق على المذكر والمؤنث، ويقع على الواجب الممكن. جمعُه أشياء (الأقرب).

التفسير: يقول الله تعالى هنا: لقد عرفتم أيها الكافرون أن أهل السوء لا يمكن أن يعامَلوا بمثل ما يعامَل به أهل الصلاح، والآن نكشف لكم - نحن الذين نعلم أسرار السماوات والأرض- سرًّا آخر ينبغي أن تستوعبوه جيدًا ألا وهو أن ساعة هلاكهم قريبة، بل ستحل بكم في لمح البصر أو أقرب من ذلك.

ولما كان من الممكن القول أن معرفة الغيب لا تعني بالضرورة أن صاحبَ الغيب قادرٌ على أن يأتي بالنتائج كما يريد، لذلك ختم الله الآية بقوله ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾.. أي أننا لا نعلم الغيب فحسب، بل نملك القدرة كلها على صياغة أحداث المستقبل كما نريد.

هذا، وفي الآية إيماءة إلى أنه سيأتي على الناس زمان سيزعم فيه البعض بأن هلاك أعداء محمد ﷺ لم يكن إلا صدفةً أو نتيجةً طبيعية للظروف السائدة حينئذ، وذلك لكي يقللوا من عظمة هذا الحادث. وبالفعل فإن الكتّاب المسيحيين في العصر الحديث يرددون كثيرًا بأن هلاك مناهضي محمد كان أمرًا طبيعيًّا عاديًّا وليس بمعجزة. فانظرْ كيف أن عالم الغيب الذي أنزل القرآن قد رد عليهم هنا سلفًا حيث بدأ الآية بإعلانه ﷻ أن منـــزّلها هو عالم الغيب، ثم نبّأ باقتراب هلاك الكفار، ثم ختم الآية مؤكدًا أن دمارهم لن يكون صدفةً واتفاقًا، بل نحن الذين سوف نفعل هذا بقدرتنا الغالبة وبما يفوق طاقات البشر.

علمًا أن هذا النبأ قد أُدليَ به حين كان تعذيب أهل مكة للمسلمين على أشده، وكان المسلمون لا يملكون حيلة ولا يهتدون سبيلاً إلا أن يهاجروا. فانظر كيف أن أهل المدينة – الذين لم يُسلِم منهم قبل نزول هذا النبأ إلا بضعة أفراد – دخلوا في الإسلام أجمعين؛ ثم انظرْ كيف أن الكفار أرغموا محمدًا رسول الله ﷺ على الهجرة إلى المدينة، في حين أنه لم يكن يرغب في أن يغادر مكة، وما تركها إلا بعد أن قرر الكفار اغتياله، بل لقد خرج منها في الليلة والساعة اللتين حاصروا فيهما بيته؛ وكأنه ﷺ قد أقام بذلك الحجة على الكفار بأنني لا أريد الخروج من هذا البلد، ولكنكم لم تتركوا لي مناصًا إلا أن أتركها، فها إني أخرج منها رغم أنفي. ثم انظر كيف أن الكفار لم يألوا جهدًا في كسر شوكة النبي ﷺ بالمدينة، ولكنه ازداد قوة إلى قوته بسرعة مذهلة إلى أن دمّر الكفار نهائيًّا.

من ذا الذي يمكن أن يسمي هذا صدفةً، أو نتيجةً طبيعية للظروف السائدة حينئذ، ولا سيما بعد أن تم التنبؤ عن هلاكهم؟ يمكن للكتّاب المسيحيين أن

يُثبتوا بأن أتباع محمد ﷺ حين هاجموا كسرى الفُرسِ أو قيصرَ الرومِ كانت إمبراطورية كل منهما في زوال وانحطاط، وكان نجم دولة المسلمين في صعود وارتفاع؛ ولكن ليس السؤال هنا: كيف كانت حالة الحكومة الإيرانية أو الرومية إزاء المسلمين حين هجم عليهما أتباع محمد، وإنما السؤال: أي قوة كان يملكها محمد رسول الله ﷺ وهو في مكة حين نبّأ بانتصاره وهزيمة مناهضيه؟ وإذا كان الله تعالى هو الذي منحه القوة التي قلبت حكم الجزيرة العربية لصالحه من جهة، وأطاحت بعروش كسرى وقيصر من جهة أخرى، أفليس هذا بمعجزة؟ وإذا لم يكن هذا معجزة فما الذي يسمَّى معجزة إذن؟!

وليكن معلومًا أن هذا النبأ قد أُدلي به في أواخر الفترة المكية، وأن أول انتصار حققه المسلمون كان في معركة بدر.. أي بعد حوالي سنتين ونصف السنة أو ثلاث، وقد فُتحت مكة بعد هذا النبأ بعشر سنين، ولكن كلمات النبأ تقول إن الفتح سيتم في لمح البصر أو هو أقرب؛ مما يوضّح أن مثل هذه التعابير لا تؤخذ بحرفيتها، لأن القرآن الكريم لا يقصد بها إلا المستقبل القريب فحسب.

ولقد لفتُّ النظر إلى هذا الأمر لأن البعض يبدؤون بالطعن في بعض الأنباء عند قراءة مثل هذه الكلمات فيها، متجاهلين أساليب لغة الوحي كهذه.

وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨

التفسير: يقول الله تعالى: أيها الناس قد أخرجناكم من بطون أمهاتكم وأنتم لا تعلمون شيئًا، وزوَّدناك بالسمع والبصر والفؤاد لكي تتعلموا؛ ولكنكم لم تنتفعوا بنعمنا هذه، فلا بالعين رأيتم، ولا بالأذن سمعتم، ولا بالفؤاد فكرتم ووعيتم.

كم هي مفعمةٌ هذه الجملة بمشاعر الشفقة والتأسف! فربنا القادر يتأسف على غفلة العباد التي أدّت بهم إلى العذاب بكلمات تنم عن محبته المتناهية!

هذا، وعلاقة هذه الآية بما قبلها تكمن في أنها تمثّل دليلاً آخر على ضرورة الوحي؛ ذلك لأن الإنسان يولد وهو لا يعلم شيئًا، ولكن الله يزوّده بالأذن والعين والفؤاد التي تساعده على تحصيل العلم والمعرفة. فكل العلوم المادية إنما تتيسر للإنسان عبر هذه الوسائل، وليس بوسع أحد أن يقول: لا حاجة بي إلى هذه الوسائل التي خلقها الله، بل سأنال العلم بوسائل أخلقها بنفسي. فما دام الإنسان لا يقدر على تحصيل العلم المادي إلا بما خلق الله من وسائل، فكيف يسوغ له أن يرفض استخدام الوسائل التي خلقها الله تعالى لتحصيل العلم الروحاني؟

أليس من المستغرب أن كل ما يحققه الإنسان من شرف وكمال إنما يحققه باستخدام الوسائل التي هي عطية من الله ﷻ، من دون أن يرى في استخدامها أي عار، ولكنه عندما يُدعَى إلى استخدام الوسائل المماثلة في المجال الروحاني فيرد على هذه الدعوة بالإنكار قائلاً: ليس بي حاجة إلى هذه الوسائل، لأنني قادر على تحقيق الرقي الروحاني بدونها. مع أن الحقيقة أنه ليس بوسع الإنسان أن يستغني عن الحواس المادية لكسب العلم المادي، كما لا يمكن له لكسب الكمال الروحاني أن يستغني عما خلقه الله بحكمته البالغة من وسائل روحانية.

وقد ختم الله تعالى الآية بقوله ﴿لعلكم تشكرون﴾ لينبِّه أن الغرض من خلق هذه الحواس فيكم، أيها الناس، أن تقدروا نعم الله تعالى وتشكروه عليها، ولكنكم تأخذكم الكبرياء والغرور نتيجة هذه النعم، وتقولون لا حاجة بنا لأي تعليمات من الخارج!

هذا، وقد ذكر الله تعالى الأُذن أوّلاً ثم العين ثم الفؤاد، وبهذا الترتيب نفسه تساعد هذه الحواس الإنسان على زيادة معرفته؛ فالأُذن هي التي تعمل في المولود قبل كل شيء لكسب المعرفة، ثم العينُ، ثم القلب أي القوة الفكرية. وهذا ما

أكدته البحوث العلمية الحديثة أيضًا؛ حيث نجد أن مواليد بعض الحيوانات تفتح عيونها بعد عدة أيام، بينما تعمل آذانها عملها في هذه الفترة. أما طفل الإنسان فتبدو عينه مفتوحة عند الولادة، ولكن الواقع أنها تعمل عملها بعد الأُذن، أما قوته الفكرية فتبدأ عملها بعد مرور فترة من الوقت.

هذا الترتيب الطبيعي يشكل برهانًا ساطعًا آخر على أن القرآن كلام الله تعالى، إذ أخبر هنا بما لم يكن معلومًا لإنسان ذلك العصر.

أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾

شرح الكلمات:

جوّ: الجوُّ: ما بين السماء والأرض. جوُّ البيت: داخله (الأقرب).

يُمسكهن: أمسَكَ الشيءَ بيده: قبَضه. وأمسَكَ اللهُ الغيثَ: حبَسه ومنَع نزولَه. أَمسكَ عن الكلام: سكَت: أَمسكَ عن الأمر: كفَّ عنه وامتنع (الأقرب).

قوم: القوم: الجماعةُ من الرجال خاصةً، وقيل: تدخُله النساءُ على تَبَعيّة، سُمُّوا بذلك لقيامهم بالعظائم المهمات. يذكَّر ويؤنَّث فيقال: قام القومُ وقامَت القومُ (الأقرب).

التفسير: قال المفسرون في قوله تعالى ﴿ألم يَروا إلى الطير مسخَّرات في جو السماء﴾ أن معناه أن الله قد مكّنها من الطيران في الجو بدون سبب ظاهري، وذلك ليبرهن على قدرته ﷻ (الرازي، والبيضاوي).

غير أني لا أراه معنى صائبًا، وإنما الواقع أن الآية تتحدث عن عقاب الكفار، حيث حذّرهم الله تعالى أنه قد منع هذه الطيور الآن من الانقضاض عليهم، ولكن الأيام موشكة حين تنقضّ عليهم هذه الطيور لتنهش جثثهم نهشًا. وذلك

ما حدث بالفعل في عديد من المعارك التي دارت بينهم وبين المسلمين حيث كان الكافرون يفرّون من ساحة القتال تاركين وراءهم جثث قتلاهم التي كانت تصير طعامًا سائغًا للطيور.

وهناك بيت شعر للنابغة الذبياني في هذا المعنى حيث قال:

إذا ما غدَى بالجيش حلَّق فوقــهُ عصائبُ طيرٍ تهتدي بالعصــائبِ

أي أن الممدوح إذا خرج بجيشه حلّقت الطيور فوقهم، لأنها تعرف أن هذا لا بد أن يفتك بأعدائه، مما سيهيئ لها طعامًا شهيًّا.

وورد في التاريخ عن تيمور لنك أنه حيثما توجه بجنوده حلّقت النسور فوقه، لأنه حيثما قاتل تغلب على الأعداء، وكانت الطيور قد أدركت بما أوتيتْ من وجدان فِطري أن طعامها مضمون ما دامت في رفقة هذا الجيش.

فالواقع أن تحليق الطيور في جو السماء تعبير عن هلاك قوم وانتصار قوم آخرين، وقد أُشير هنا إلى هذا المعنى نفسه. وقد استخدم القرآن الكريم هذا التعبير في مكان آخر أيضًا حيث قال الله تعالى ﴿ألم تَرَ كيف فعَل ربُّك بأصحاب الفيلِ* ألم يجعَلْ كيدَهم في تضليل * وأرسَلَ عليهم طيرًا أَبابيلَ * تَرميهم بحجارةٍ من سِجِّيلٍ * فجعَلهم كَعَصْفٍ مَأْكولٍ﴾(سورة الفيل).. أي ألم تر كيف دمّر ربُّك أبرهةَ وأصحابَه الذين أتوا بجيش من الفيلة مهاجمين مكة، فأصابهم من الدمار والذعر ما أصابهم، ففروا تاركين وراءهم موتاهم في البرية. فاجتمعت حولها الطيور، وأكلت لحومهم تنهشها وتضربها على الصخور. علمًا أن من عادة النسور أنها تأخذ قطعة من لحم الجيفة إلى مكان عال مثل رأس شجرة أو صخرة وتنظفها من التراب وتنهشها بالضرب على الغصن أو الحجر.

وقد تمثل هذه الآية الإشارة إلى حادث أصحاب الفيل حيث يحذر الله الكفار: لقد سبق أن رأيتم كيف أن الطيور أكلت جثث أعدائنا، وما تزال هذه الطيور نفسها تحلق في جو السماء في انتظار أمرنا. وإننا ما زلنا نمنع المسلمين من

قتالكم، ولكنهم عندما يخرجون لحربكم فسوف ترون يومًا كيوم أبرهة وجيشه من قبل. وهذا ما حدث بالفعل.

وقال في ختام الآية ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون﴾.. أي أنكم أيها الكفار تقضون العجب من هذا النبأ، ولكن المؤمنين يرون فيه آيات وأي آيات، موقنين تمامًا بتحقُّقه.

وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ ۙ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٨٠

شرح الكلمات:

سَكَنًا: سكَن فلان دارَه: استوطنها وأقام بها. سكَن إليه: ارتاح. السكَن: كلُّ ما يُسكَن إليه وفيه ويُستأنس به؛ الرحمةُ؛ البركةُ (الأقرب).

تستخفّونها: استخَفَّه: ضدُّ استثقلَه (الأقرب).

ظَعْن: ظعَن يظعَن ظَعْنًا: سارَ، تقول: ظعَنوا عن ديارهم (الأقرب).

أصواف: جمعُ الصوف: وهو للشاء كالشَّعر للمِعْزَى والوبرِ للإبل (الأقرب).

أشعار: جمعُ شَعْر، والشعر: ما ينبُت من مسامّ البدن مما ليس بصوف ولا وبر (الأقرب).

أثاثًا: الأثاث: متاعُ البيت بلا واحد؛ وقيل : هو ما يُتّخذ للاستعمال والمتاع لا للتجارة؛ وقيل: المالُ كله (الأقرب).

التفسير: يقول الله تعالى: تعيشون أيها الكفار في راحة تامة في مساكنكم الدائمة وكذلك في خيامكم التي تحملونها بسهولة في أسفاركم لتنـــزلوا حيث

شئتم، كما تنعمون بالحرية في أسفاركم التجارية؛ فلماذا تريدون أن تُنـــزَع منكم هذه النعمة جرّاءَ سيئاتكم.

لقد قال الله هنا ﴿بيوتًا تستخفّونها يومَ ظعنكم ويوم إقامتكم﴾، ذلك لأن حمل هذه البيوت الجلدية في الأسفار سهل، كما أن تنصيبها لا يتطلب جهدًا كبيراً، حيث لا تمر دقائق قلائل حتى تتحوّل البادية بفضل هذه الخيام إلى مدينة مأهولة تضج بالحركة والحيوية.

وقد ذكر الله ﷻ خيام الجلود لأن العرب كانوا يستخدمون هذا النوع من الخيام (الرازي)، كما أنها أفضل من خيام القماش في حمايتها من البرد والمطر.

وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨٢﴾

شرح الكلمات:

أكنانًا: جمعُ كِنٍّ وهو: وِقاءُ كلّ شيء وسترُه؛ البيتُ (الأقرب).

سَرابيل: جمعُ سِرْبال وهو: القميصُ؛ الدِّرعُ؛ وقيل: كلُّ ما لُبِس (الأقرب).

بأْس: البأس: الشدةُ في الحرب (الأقرب).

تُسلمون: أسلمَ: انقادَ. أسلمَ فلان: تَدَيَّنَ بالإسلام. أسلَمَ العدوَّ: خذَله. أسلَمَ أمرَه إلى الله: سلَّمه (الأقرب). فقوله تعالى ﴿لعلكم تُسلِمون﴾ يعني لكي تنقادوا لله تعالى، أو لكي تفوّضوا أموركم إليه.

التفسير: هذه الآية استمرار للموضوع السابق نفسه حيث يعدّد الله فيها مزيدًا من نعمه على الكفار، ويذكّرهم أنهم ينعَمون أثناء السفر بالراحة تحت ظلال الأشجار، ويتخذون مصايف في الجبال؛ كما هيّأ لهم اللباس الذي يقيهم من لظى الحر، وعلّمهم صنعة الدروع التي تحميهم أثناء الحرب. لقد أوتوا كل هذه النعم لكي ينعموا بالراحة ويكونوا في مأمن من هجمات العدو؛ ولكنهم يدمّرون هذا الأمن بأيديهم إذ يستغلّون النعم ضد المنعم. لقد أعطاهم الله هذه النعم ليكونوا عبادًا مطيعين له شكرًا عليها، ولكن ما حصل منهم هو العكس، إذ بطَرْتُهم هذه النعمُ وغرّتهم هذه الحماية، فقاموا لمعارضته عز وجل!

ومن معاني "أسلمَ" حمَى غيرَه من شره، علمًا أن هذا المعنى لا تذكره القواميس المتوفرة حاليًّا، ولكنه جائز بحسب قواعد اللغة العربية حيث يحوّلون الفعل اللازم متعديًا بإضافة الهمزة إليه وجعله من باب الإفعال، كما هو ثابت من الحديث الشريف حيث ورد: "المسلم من سلِم المسلمون من لسانه ويده" (مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام). وأرى أن هذه الآية تتضمن هذا المفهوم أيضًا أي أننا وهبنا لكم هذه النعم لكي تَسلموا من الآفات وتعيشوا عبادًا شاكرين لله تعالى فتحموا غيرَكم من شروركم، ولكنكم اتخذتم هذه النعم أداة للعدوان على الآخرين.

هذا، ويمكن أن نستنتج من هذه الآية أمرًا آخر يتعلق بالسياسة وهو أنه لا يحق للأكثرية أن تطرد الأقلية من البلد. ولكن هذا لا يمنع من طرد الظالم من البلد، بل مَن يخالف القانون فلا بد من طرده من المجتمع. إنما أقول إن المسلمين الأوائل ما خرجوا على النظام الحاكم بمكة وما أخلّوا بحكم أهلها، وإنما توسلوا إليهم أن لا يمارسوا الإكراه في الدين وأن يسمحوا لهم بأن يقولوا في حرية: ربُّنا اللهُ، ومع ذلك كان هؤلاء الكفار يؤذونهم.

فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٣﴾

التفسير: يقول الله تعالى إذا لم ينته هؤلاء عن نواياهم الشريرة رغم محاولاتك للصلح واعتدوا على المسلمين دونما جريرة فما كان عليك إلا النصح، وقد قمتَ به، فسوف يتحملون الآن مسئولية ما يفعلونه من خير أو شر.

يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٤﴾

شرح الكلمات:

ينكرون: راجع شرح الآية رقم ٢٣ من هذه السورة وشرح الآية رقم ٦٣ من سورة الحِجر.

التفسير: لقد نبّه الله ﷻ بقوله ﴿يعرِفون﴾ أنه ينبغي للإنسان أن يتّعظ برؤية ما يوجد حوله من نعم الله تعالى، ولكن هؤلاء جدُّ أشقياء لأن نعم الله قد نزلت عليهم، وإنهم يرونها في نفوسهم، ومع ذلك ينكرونها.. أي لا يقدرونها بالعمل حق قدرها؛ وليس المراد أنهم ينكرون بأفواههم وجود هذه النعم، لأن الكافرين كانوا يعترفون بأنها من عند الله تعالى.

وقال الله تعالى في آخر الآية: ﴿وأكثرهم الكافرون﴾. واعلم أن الكفر هنا ليس بمعنى الرفض العادي، إذ قد سبق الحديث عن الرفض العادي في قوله تعالى ﴿ثم ينكرونها﴾؛ ثم إن الله سبحانه وتعالى لم يقل هنا: "وأكثرهم كافرون"، بل قال: ﴿وأكثرُهم الكافرون﴾، و(ال) هنا للكمال، مثل قولنا لأحد: أنت الرجلُ.. أي الكامل في الرجولية (انظُر أقرب الموارد تحت "ال"). فالمعنى أنهم ليسوا منكرين عاديين، بل متشددين في الإنكار مصرّين عليه. إذن فقوله تعالى ﴿ثم ينكرونها﴾ يشمل الكفارَ عامة، أما قوله ﴿أكثرهم الكافرون﴾ فيتحدث عن الأكثرية منهم،

والمعنى أن كل هؤلاء القوم يتنكرون لِنعم الله عمومًا، ولكن الأكثرية منهم قد تَجاوَزوا كل حدود العناد والجحود لِنعمه ﷻ.

أما بالنظر إلى ترتيب الموضوع فتعني الآية أنهم يعترفون بنعم الله المادية، ولكنهم يكفرون بوجود نعمه الروحانية؛ وكأن قوله تعالى ﴿يعرفون﴾ متعلق بالنعم الدنيوية وقوله ﴿ينكرونها﴾ متعلق بالنعم الروحانية.

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٥﴾

شرح الكلمات:

شهيدًا: الشهيد هو: الشاهدُ؛ الأمينُ في شهادته (الأقرب).

يُستعتَبون: استعتبَه: أعطاه العُتبى؛ طلَب إليه – أي منه – العتبى، يقال: استعتبتُه فأَعْتَبَني أي استرضيتُه فأرضاني، ومنه: ما بعد الموت مستعتَب أي استرضاءٌ. العُتْبَى: الرِّضى (الأقرب). والاستعتاب: أن يُطلَب من الإنسان أن يذكر عَتْبَه (أي عذرَه) ليُعتَب (المفردات).

التفسير: بعد الحديث عن هذه الجريمة الشديدة جريمة نكران النعم، أشار الله تعالى من جديد إلى الحياة الآخرة، تنبيهًا للكفار أنهم سيعذَّبون في الآخرة أيضًا على جريمتهم إضافةً إلى عقوبتهم الدنيوية، وسيكون ذلك العذاب أشد خزيًا وأكثر ذُلاً من عذاب الدنيا، إذ سيعذَّبونه هناك أمام جميع الأرواح الإنسانية من كل الأزمان والعصور، حيث يُؤتى برسول كل أمة ليشهد عليها؛ فلِمَ لا يفكّرون في الخزي الشديد الذي ينتظرهم في ذلك اليوم العصيب.

وهناك آية أخرى تتحدث عن هذه الذلة وتقول: ﴿فكيف إذا جئْنا من كلِّ أُمّة بشهيد وجئْنا بك على هؤلاء شهيدًا۝ يومئذٍ يَوَدُّ الذين كفَروا وعصَوُا الرسولَ لو تُسوَّى بهم الأرض﴾(النساء: ٤٢و٤٣).

هذا، وتؤكد هذه الآية أن الله تعالى قد بعث رسله في كل أمة من الأمم. لقد بيّن القرآن الكريم هذه النظرية في آيات عديدة أخرى أيضًا، وهذا مما يميّز الإسلام عن الديانات الأخرى، ويشكّل واحدًا من البراهين الساطعة على صدقه.

أما قوله ﷻ ﴿ثم لا يُؤذَنُ للذين كفَروا﴾ فقد فسره البعض بأنه لن يُسمَح لهم بالكلام مع الله تعالى (روح البيان، والتفسير المظهري). ولكن هذا المعنى خطأ، لأن القرآن الكريم قد أكد في آيات عديدة حوارَ الكفار مع الله تعالى يوم القيامة حيث يحاولون أن يقدموا إليه ﷻ أعذارهم. وعليه فقد يكون المراد أنه لن يؤذن للكفار بدخول الجنة، أو لن يؤذن بالشفاعة في حقهم، ذلك حين يؤتى برسل الأمم يوم الحشر ليشفعوا في حق من لم يحقِّق الكمالَ الروحاني، ولكنه كان ضمنَ مَن يمكن أن يسميه الأنبياء من أتباعهم، فيشفعون له. ولكن هؤلاء الأشقياء من الكفار سوف يُحرَمون من شفاعة الشافعين.

مع العلم أن القرآن الكريم والحديث الشريف يؤكدان أن الشفاعة لن تتم إلا بإذن الله؛ حيث قال الله تعالى: ﴿ولا تنفَع الشفاعةُ عنده إلا لمن أَذِنَ له﴾(سبأ: ٢٤). وقد تكرر هذا المعنى في الأماكن التالية أيضًا: البقرة: ٢٥٦، يونس: ٤، طه:١١٠، النجم: ٢٧. كما أكد الحديث الشريف هذا الأمر حيث ورد في رواية: "ثم يؤذن للملائكة والنبيين والشهداء أن يشفَعوا" (مسند أحمد ج ٥ ص ٤٣ عن أبي بكرة).

هذا، وقد ذكر القرآن لقوله تعالى ﴿ثم لا يؤذن للذين كفروا﴾ معنى آخر إذ قال ﴿ولا يؤذن لهم فيعتذرون﴾.. أي لن يُسمَح للكفار بتقديم الأعذار.

أما شهادة الأنبياء هذه فهي - عندي - تعني أسوتهم العملية، أي أنهم سيقدّمون أنفسهم كشهادة عملية لتأثير الوحي الإلهي حيث يقولون: انظروا،

كيف أن الإيمان بالوحي رَفَعَنا من الثرى إلى الثريا، وأتاح لنا الوصال بالله تعالى. وهكذا سوف يخزي الله ﷻ الكافرين يوم القيامة ويقول: انظروا إلى ما حققه وحيُنا من معجزة، حيث شحن رسولَنا بالقوى الروحانية التي حققت له هذا الكمال الروحاني، وكيف دفعكم إنكار الوحي إلى الحضيض.

علمًا أن كل نبي يكون النموذج العملي لما في وحي الله من تأثير، ومن أجل ذلك لا يأتي الوحي إلا مع النبي. فكأن النبي يكشف عظمة الوحي، والوحي يكشف عظمة النبي.

وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٧﴾

شرح الكلمات:

يُنظَرون: راجعْ شرح الآية رقم ٩ من سورة الحجر.

دُوْن: نقيضُ فوقَ، تقول: هو دونَه أي أحطُّ منه رتبةً؛ ويكون ظرفًا بمعنى أسفل، تقول: هذا دون ذاك أي متسفِّلٌ عنه؛ وبمعنى أمامَ نحو: مشَى دونه أي أمامَه؛ وبمعنى وراء، يقال: قعَد دونه أي وراءه؛ وبمعنى فوق وهو ضد (المعنى) الأول؛ وبمعنى غير؛ وبمعنى الشريف؛ وبمعنى الخسيس، يقال: شيءٌ دونٌ أي خسيس. وحالَ القوم دون فلان أي اعترضوا بينه وبين من يطلبه فلم يقدر أن يناله (الأقرب).

ألقَوا: ألقاه إلى الأرض: طرَحه. ألقى إليه القولَ وبالقول: أبلَغَه إياه. ألقى عليه القولَ: أملاه. ألقى إليه السمعَ: أصغى (الأقرب). راجع للمزيد شرح الآية رقم ١٦.

التفسير: اعلم أن العذاب المشار إليه هنا هو عذاب الآخرة.

الغريب أن الكافرين كانوا يعارضون أنبياءهم في الدنيا من أجل شركائهم، أما يوم القيامة فيتوسلون إلى الله ﷻ أن يا ربّنا عَذِّبْ شركاءَنا لأنهم الذين دأبوا على تضليلنا.

لقد نبّهنا الله ﷻ بذلك إلى أن صداقة الكفر والإثم لا تكون مخلصة ومتينة أبدًا؛ ذلك لأن الإنسان يمكن أن يتحمل الأذى من أجل الآخر إلى حد محدود، ولكن بما أن الكفر يجلب على صاحبه أنواعًا وصنوفًا من عذاب الله لذلك يأتي وقت تخمد فيه الصداقة بين الكافر وأصدقائه وتبرد، ويتبرم كل منهم من صاحبه ويتبرأ.

أما قوله تعالى ﴿فأَلْقَوا إليهم القولَ﴾ فله مفهومان: الأول: أن شركاءهم سوف يخبرون بموقفهم بكل صرامة وصراحة، وذلك من قولهم: ألقى إليه القول أي أبلغه إياه؛ والمفهوم الثاني هو أن شركاءهم سوف يردّون عليهم من فورهم دونما توقف، وذلك من قولهم: ألقاه أي طرَحه، والطرح ينطوي على معنى العجلة كما لا يخفى.

أما قوله تعالى ﴿فلا يخفَّفُ عنهم﴾ فالمراد منه أن عذرهم هذا غير معقول، لأن أحدًا إذا كان قد حاول تضليلهم فلماذا ضلّوا هم؟ أَمَا كان بوسعهم أن يرفضوا قول المضِلّ.

وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٨﴾

شرح الكلمات:

السَّلَم: راجع شرح الكلمات للآية رقم ٢٩.

ضلَّ عنهم: ضلَّ يضلُّ: ضدُّ اهتدى. ضلَّ فلان عن الطريق: لم يهتدِ إليه. وضلَّ الرجل في الدين ضلالاً وضلالةً: ضدُّ اهتدى. ضلَّ فلانٌ الفرسَ: ذهَب عنه. ضلَّ عني كذا: ضاعَ. وضل الماء في اللبن: خَفِيَ وغاب. ضلَّ الناسي: غاب عنه حفظُ الشيء. وضل فلان فلانًا: نسِيه. ضل سعيُه: عمِل عملاً لم يعُد عليه نفعُه (الأقرب).

يفتَرون: افترى عليه الكذبَ: اختلقَه (الأقرب).

التفسير: يقول الله تعالى إن الكافرين حين يرون آلهتهم قد انقلبوا أعداءً لهم فسوف يغيِّرون على الفور نبرة حديثهم مع الله تعالى ويتوسلون إليه بمنتهى الخشوع والتذلل: ربنا، إننا عبادك أنت، وما كنا نهدف من عبادتنا لغيرك إلا التركيز على عبادتك. لقد فعلنا هذا بحسن نية، لا بقصد الخروج عليك. عندها ستغيب عنهم كل تلك الدعاوى العريضة التي كانوا يتشدقون بها في الدنيا.

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٩﴾

شرح الكلمات:

فوقَ: الفَوق: مصدرُ فاقَ يفوق؛ وهو في الأصل ظرفٌ للمكان نحو: صعدتُ فوق الجبل، وقد يُستعمل للزمان نحو: لبِثنا فوق شهر أي زمانًا أكثر من شهر؛ وهو معرَّب إلا إذا حُذف ما أضيف إليه ونُوِيَ معناه دون لفظه فإنه يُبنى على الضم نحو: عندي مائةٌ فما فوقُ، وإذا نُويَ لفظُه دون معناه أُعرب غيرَ منوَّن. وقد يُستعمل اسمًا كقوله: "فإذا ذُكِرتَ فكلٌّ فوقٍ دونُ". وقد يستعار للاستعلاء الحكمي ومعناه الزيادة والفضل فيقال: "العشرة فوق التسعة" أي تزيد عليها. "هذا فوق ذاك" أي أفضل منه (الأقرب).

التفسير: لقد أوضح الله ﷻ هنا مرة أخرى أن الكفار نوعان: الضالّ والمضِلّ، وأن الأخير يعاقَب بأشدَّ مما يعاقَب به الضال.

العجيب أن هؤلاء المضلِّين يقولون في الدنيا للجاهلين: اتّبعونا ونحن نضمن لكم النجاة في الآخرة، ولكن الحق أنهم سيعذَّبون هنالك بأشدَّ مما يعذَّب به أتباعُهم الذين وعدوهم بالنجاة.

وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾

شرح الكلمات:

تِبْيانًا: بانَ الشيءُ يَبين تبيانًا: اتّضح. و(بانَ) لازمٌ وقد يتعدّى فيقال: بِنْتُه أي أوضحتُه (الأقرب).

التفسير: هذه الآية تكملة لموضوع الآية السابقة حيث يخبر الله ﷻ رسوله: سيُقدَّم الرسل يوم القيامة كنماذج لتأثير الوحي، وسوف نقدّمك أيضًا أمام هؤلاء الذين يكفرون بك الآن، وسنقول لهم: هذا الشخص كان منكم، ومع ذلك رأيتم كيف حمى نفسه من نجاسة الشرك وغيره من عقائدكم الفاسدة، وكيف صار عبدًا مطيعًا لله تعالى وتسبب في هداية الآخرين؟ أليس ذلك لأنه صار مهبطًا لوحي الله ﷻ، بينما كنتم محرومين منه، بل لم تروا له من حاجة.

ثم أشار الله تعالى إلى بركات هذا الوحي معلناً: يا محمد، لقد أنزلنا عليك الكتاب الذي يفصّل كل حاجة روحانية، ويهيئ أسباب الرحمة والهدى.. أي إنما تفضُل على قومك بفضل هذا الوحي.

أما كلمة ﴿كل شيء﴾ الواردة في قوله تعالى ﴿تبيانًا لكل شيء﴾ فلا يراد بها كل شيء موجود في العالم، وإنما يُقصد به كل ما له صلة بهذا الكتاب، ومثاله قول المعلم للتلميذ: خذ معك كل الكتب، فلا يعني بذلك كل الكتب الموجودة في المكتبة، وإنما يقصد به كُتبَه هو فقط. إذًا فالمقصود من ﴿كل شيء﴾ هنا كل ما يحتاج إليه المرء في سبيل رقيه الروحاني.

ورُب قائل يقول هنا: كيف تصحّ دعوى القرآن الكريم بكونه ﴿تبيانًا لكل شيء﴾ وهناك مسائل دينية كثيرة لا نجد تفصيلها إلا في الحديث الشريف؟ والجواب: أن أصول الأحكام كلها مذكورة في القرآن الكريم، أما التفصيل الذي نجده في الأحاديث فما هو إلا تفسير للقرآن الكريم، وذلك لأن الله تعالى قد منح النبيَّ ﷺ فهمَ القرآن أكثرَ من إنسان آخر، فإذا كان هو قد فصّل بعض الأحكام القرآنية في أحاديثه فليس معناه أن القرآن الكريم ناقص، وإنما يعني أنه ﷺ استطاع بفضل فهمه الكامل أن يستنبط من القرآن أحكامًا تقاصرت أفهامنا عن استنباطها منه بسبب دقّتها ولطافتها.

إن أهل القرآن* قد ارتكبوا خطأً كبيرًا في هذه المسألة حيث يقولون: كان محمد ﷺ بشرًا مثلنا فلماذا نقبل رأيه، وإنما نقبل ما يقوله القرآن نفسه!

والحق أن القضية لا تتعلق بقبول رأي القرآن أو رأي النبي ﷺ، وإنما تتعلق بواقع كونه ﷺ أدرى الناس بما نزل عليه من الوحي. يقول الله تعالى عن نبيه الكريم ﷺ ﴿وما ينطِق عن الهوى۞ إنْ هو إلا وحيٌ يوحَى﴾(النجم: ٤ و٥).. أي أن كل ما قاله النبي ﷺ عن القرآن الكريم إنما قاله بتوجيه إلهي، وما كان يخطئ في ذلك أبدًا. فالذي عصمه الله ﷻ من الخطأ لا مناص لنا من تفضيل تفسيره للقرآن على تفاسير الآخرين. مما لا شك فيه أن من حقنا أن نناقش صحة رواية يقال أنها حديث للرسول ﷺ، ولكن لا يحق لنا أبدًا أن نقول: لا شك في صحة

* أهل القرآن فرقة لا تأخذ بأحاديث الرسول ﷺ. (المترجم)

الرواية، ولكن النبي ﷺ جانَبَ فيها الصوابَ - نعوذ بالله من ذلك! إن ما يقوله النبي ﷺ تفسيرًا للقرآن الكريم لا بد لنا من قبوله، سواء فهمناه أم لم نستطع فهمه، شريطة أن تكون الرواية التي ذُكر فيها التفسير النبوي صحيحة وفقَ المقاييس الموضوعة لمعرفة صحة الروايات.

إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾

شرح الكلمات:

العَدْل: عدَل يعدِل فلانًا بفلان: سوَّى بينهما. عدَل القاضي والوالي عدْلاً وعدالةً: أنصفَ. العَدْلُ: ضدُّ الجورِ؛ العادلُ المرضيُّ للشهادة. والعَدْل من القضاة والحكامِ: الوافون للحق في أحكامهم (الأقرب).

الإحسان: أحسنَ: أتَى بالحسن. وأحسنَ الشيءَ: جعَله حسنًا؛ عَلِمَه، ومنه: فلان يُحسن القراءةَ (الأقرب).

القربَى: القربُ في الرَّحِم (الأقرب).

الفحشاء: الفاحشةُ؛ البخلُ في أداء الزكاة (الأقرب).

المنكَر: ما ليس فيه رِضى الله من قولٍ أو فعلٍ، والمعروفُ ضدُّه (الأقرب). للمزيد راجِعْ شرح الآية رقم ٦٣ من سورة الحِجر.

تذكَّرون: تذكَّرَ أي ذكَر (الأقرب).

التفسير: لقد أعلن الله تعالى من قبل أن في القرآن الكريم أربع ميزات: تبيانًا لكل شيء، وهدًى، ورحمة، وبشرى للمسلمين. وقد بدأ من هذه الآية وما يليها

يسوق البراهين على توافر هذه المزايا في تعليم القرآن، مؤكدًا أنه من المحال أن يحوم حول نجاحه أي شك.

وإن أول هذه البراهين مذكور في هذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها، وأرى أن مضمونها ليكفي وحده لإثبات هذه المزايا الأربع في القرآن، وإليكم بيان ذلك:

تأمر هذه الآية بثلاث وتنهى عن ثلاث، والظاهر أن الأمر بالمعروف هداية، بينما النهي عن المنكر رحمة؛ فأصبحت هذه الآية ﴿هدًى ورحمةً﴾.

ثم بيّنت هذه الآية مراتبَ الأخلاق بأسرها، فصارت آيةً جامعةً شاملةً ومصداقًا رائعًا لقوله تعالى: ﴿تبيانًا لكل شيء﴾.

وتنتهي هذه الآية بقوله تعالى: ﴿لعلكم تذكّرون﴾، ومعنى التذكر ذكرُ الشيء أو ذكرُ الله وتسبيحه وحمده ﷻ؛ فالمعنى: كي تذكروا حقوق الله وحقوق العباد وتؤدّوها، أو لكي تسبّحوا الله وتمجّدوه ﷻ. وبما أن غاية خلق الإنسان تنحصر في هذين الأمرين الاثنين: حقوق الله وحقوق العباد.. فصارت هذه الجملة بمثابة بشرى للناس بأنهم إذا عملوا بهذا التعليم حققوا غاية خلقهم حتمًا.

فانظر كيف أن هذه الآية، رغم قِصرها، تلقي الضوء على كل هذه المزايا التي ادعى بها القرآن الكريم. والواقع أن هذا الإيجاز البليغ سمة للقرآن وحده دون سائر الأسفار الأخرى؛ فكلمات هذه الآية قليلة جدًّا، ومع ذلك ليس فيها غموض ولا إشكال، بل المعنى واضح جليّ جدًّا بحيث يستطيع كل عاقل استيعابه بأدنى تدبر.

والآن أتناول فحوى هذه الآية ببعض التفصيل. اعلمْ أن لكل شيء جانبين: إيجابي وسلبي، ويستحيل اكتماله بدون اكتمال الجانبين فيه.. بمعنى أنه يجب أن يتوافر في الشيء ما لا بد من توافره فيه حتى يكتمل، وأن يخلو مما لا بد من أن يخلو منه حتى لا يقع فيه نقص أو عيب. ومن وجهة النظر الدينية، لا بد للتعليم الكامل من أن يتحلى بالمزايا التالية:

١- أن يأمر بما يحقق الكمال الروحاني، وينهى عما يحول دون هذا الغرض.

٢- أن يراعي - لدى سَنِّ قانون عام لا يخص فردًا أو قومًا بل أفرادًا وأقوامًا كثيرة - كل الطبائع البشرية بمختلف أنواعها بحيث يتمكن كل إنسان من العمل به حسب استعداده.

٣- أن يكون صالحًا للعمل به حتى لا يؤدي إلى فساد دين الناس أو خُلقهم أو عقلهم أو حضارتهم.

لقد جمع الله ﷻ في هذه الآية القصيرة هذه الأوجهَ الثلاثة للكمال جمعًا رائعًا؛ فقد أمر بالإيجابيات الثلاث: العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، ونهى عن السلبيات الثلاث: الفحشاء والمنكر والبغي.

فالعدل هو التساوي والمراد منه أن يعامل المرء صاحِبَه بالمثل؛ فإذا ظلمه انتقم منه بقدر ما ظلمه دون أن يعتدي عليه، وإذا صنع به معروفًا ردّ عليه بمعروف مثله على الأقل.

والعدل مع الله ﷻ يعني أنه تعالى قد شمل الإنسان بنعم كثيرة، فعليه أن يؤدّي حق هذه النعم، فلا يتيح بأعماله السيئة الفرصةَ لأحد للطعن في ذاته ﷻ، أو لا يعطي غيرَ الله ما هو حقه ﷻ، وذلك بالإشراك به، لأن الشرك ظلم وهو بمثابة سلب حق من أحد وإعطائه غيرَه، ومن أجل ذلك فقد سمى القرآن الكريم الشركَ ظلمًا عظيمًا. فالاعتقاد بوجود ابن أو زوجة أو شريك لله تعالى ظلم وخلاف للعدل.

كما ليس من العدل مع الله تعالى أن يعزو الإنسان إلى نفسه الصفاتِ الخاصة بالله تعالى. فمثلاً إن إنزال الوحي والشرع من اختصاص الله تعالى وحده، ولو أن أحدًا ادعى أنه هو يُنـــزل الوحي أو الشرع مثلما ادعى "البهاء" (قرن بديع ص ١٨١ و١٨٨).. فلا شك أنه يخالف مبدأ العدل. والواقع أن الإنسان لو عدل مع الله تعالى لما بقي للشرك والكفر والعصيان من أثر.

والوجه الثاني هو الإحسانُ، أي أن تصنع المعروف إلى غيرك، سواء أحسَنَ هو إليك أم أساء. وهذا أفضل من العدل، ويندرج تحته العفوُ عن الآخرين ومساعدةُ

الفقراء وإعطاء الصدقات وأداء الخدمات القومية وما شابه ذلك. ومن الإحسان أيضًا السعي لترويج العلوم وتدوين المعارف ونشرِها، إذ يعود هذا على الأقارب والأباعد بفوائد مادية جمة ومنافع روحانية كثيرة.

والوجه الثالث هو "إيتاء ذي القربى"، أي أن تنفق على الناس كما تنفق على أقاربك.. أي أن تعامل الناسَ كما يعامل القريبُ قريبَه. ولا يراد به الإحسان الذي سبق ذكره، بل المعنى أن تعامل الناس بمحبة طبيعية تلقائية دونما تفكير في أي مقابل؛ ذلك أن الإنسان، حين يردّ بالإحسان إلى من أحسن إليه، قد يفكر أنه لو ردّ على محسنه بأفضل مما أخذ منه لكسب به مدحَ الناس وثناءهم، أو يفكّر- حين يغفر لأحد خطأه - أن هذا العمل سيمحو من قلبه العداوة وسيجعله صديقًا له معينًا. ولكن ما تبديه الأم من حبٍّ وتفانٍ لولدها لا تشوبه ذرة من شوائب التفكير في المقابل والجزاء، بل ليس وراء حبها إلا روح التفاني في خدمة الولد. إن المرأة لا تفكّر في الإنجاب من أجل أن يخدمها ابنها، بل إن حبها للإنجاب يرجع إلى عاطفتها الطبيعية أن تُرزَق ولدًا حتى تسهر على رعايته وخدمته، وغذائه وكسائه، وأن تزوِّجه لترعى أولاده أيضًا. فالأم لا تريد الأولاد لكي يخدموها، وإنما لكي تخدمهم. فلو فعل المرء المعروفَ بمثل هذه العاطفة فقد عمل أفضل حسنة، وإذا بلغ هذه الدرجة في الخيرات فقد اكتمل كيانه الخُلقي. وكأن الله تعالى ينصحنا هنا: إذا كنتم قد تعودتم على فعل الإحسان بحيث صار العطاء أحبَّ إليكم من الأخذ فعليكم أن تحوزوا الآن مرتبة أعلى منها، وانظروا إلى أفراد الجنس البشري جميعًا وكأنهم أولادكم، حتى تفيض قلوبكم بعواطف التفاني في خدمتهم كما يفيض قلب الأم بمشاعر خدمة ولدها.

إن التعليم المذكور أعلاه تعليم إيجابي ولا جَرَمَ أن القرآن قد أوجَزَ في الكلمات المختصرة الأخلاقَ الفاضلة بجميع أشكالها.

ولنتذكرْ هنا أن حقوق الله ﷻ تنتهي إلى حد العدل، إذ من المستحيل أن يعامل الإنسان ربَّه على سبيل الإحسان وإيتاء ذي القربى، ولكن فيما يتعلق ببني جنسه

فهو مأمور بأن يعاملهم على أساس العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى؛ فالنوعان الأخيران من السلوك تخصان العباد فقط دون الله تعالى. وفي هذا تنبيه أنه لا مناص للإنسان للوصول إلى الله والظفر برضوانه ﷻ من إسداء الخير إلى عباده؛ وكأن الإحسان وإيتاء ذي القربى سُلّمان للتقرب إلى الله تعالى.

بعد هذا التعليم الإيجابي بيّن الله ﷻ التعليمَ السلبي حيث نهى أيضًا عن ثلاث من المساوئ؛ وذكر في صدارتها الفحشاءَ التي تعني - إذا ذُكرتْ إزاءَ المنكر - السيئةَ التي لا يعلم بها إلا مرتكبها فقط.

ثم نهى عن المنكر وهي السيئة التي يطّلع عليها الآخرون أيضًا ويكرهونها، وإن لم يؤدِّ ارتكابُها إلى ضرر مباشر بحقوقهم.. مثل السباب والكذب وما شابه ذلك. وقد سمّاها ﴿المنكر﴾ لأنها تُلحق بالناس أذًى نفسانيًّا.

وأخيرًا ذكر ﴿البغيَ﴾ أي هضم حقوق الآخرين، وهو بالطبع مما يحسّ به الناس ويَكرهونه، كما يتضررون منه.

والحق أن كل ما في الدنيا من سوء وفساد ينحصر في هذه الأنواع الثلاثة من السيئات؛ فإما أن تكون سيئة خفية على أعين الآخرين، أو تكون مما إذا اطّلع عليه الناس أصابهم أذى نفسانيّ وإن لم يصبهم أذى آخر مباشر؛ أو تكون من السيئات التي تبلغ من الفداحة والبشاعة حيث تضرّ البعضَ ضررًا نفسانيًّا، كما تؤدي إلى هضم حقوق البعض الآخر.

لقد قلتُ من قبل إن التعليم الكامل الذي هدفه تلبيةُ الحاجات الإنسانية بكل أنواعها لا بد له من أن يراعي الطبائعَ البشرية جمعاء، وإن هذا الشرط أيضًا متوفر في تعليم القرآن السلبي المذكور هنا. فمن الناس من يقع في الفحشاء ولكن يكره أن يظلم أحدًا، ومنهم من يهضم أموال الآخرين ظلمًا ولكنه يكره الكذب، ومنهم من لا يسلب أموال الناس ظلمًا ولكن يرتكب المعاصي الأخرى من بغض وغِيبة ونميمة وغيرها. والله تعالى قد حصر في هذه الكلمات الموجزة الثلاث كلَّ أنواع المساوئ التي يمكن أن تصدر عن أي صنف من صنوف

الطبائع البشرية، مثلما شمل من قبل الحسناتِ بكل أنواعها باستخدام كلمات ثلاث: ﴿العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى﴾.

كما هدانا الله تعالى بهذه الكلمات الوجيزة إلى الطريق الطبيعي لتجنب المساوئ ولفعل الخيرات. فإنه تعالى عند ذكر السيئات أو الحسنات بدأ بالأدنى منها ثم الأعلى وهلمّ جرًّا؛ وقد نبّهَنا بذلك على أن من أراد التحلِّي بالحسنات فعليه أن يُحرز أوّلاً مقام العدل ثم الإحسان ثم إيتاء ذي القربى؛ ومَن أراد التخلص من المعاصي فليحاولْ أوّلاً تجنُّبَ البغي، وإذا فعل ذلك استطاع اجتنابَ المنكر، وإذا تخلص من المنكر قدر على ترك الفحشاء.

كما نبّه بهذا الترتيب أن من كان حائزًا مقامَ "إيتاء ذي القربى" عليه أن يسعى كل السعي للثبات في هذا المقام، وإلا هبط منه إلى درجة "الإحسان". ومن كان يتبوّأ مقامَ "الإحسان" عليه أن يأخذ حذره وإلا سقط إلى مقام "العدل". كذلك يجب أن لا يفرح أحد ويقول في نفسه إنه لا يرتكب إلا "الفحشاء"، إذ من السهل جدًّا لمرتكب الفحشاء أن يقع في "المنكر" وبالتالي في "البغي".

وبالاختصار لقد لفت الله تعالى بهذا الترتيب الرائع الأنظارَ إلى أن الإنسان يبدأ رحلته إلى الخير بفعل أصغر الحسنات، وبترك أكبر السيئات، وأن مثل كفاحه هذا كمثل السُّلّم، فمن أراد الصعود على صرح الخير لا بد أن يضع قدمه أولاً على أولى درجات السلم فما فوقها؛ ومن كان قد وصل إلى قمة السيئات وأراد الهبوط منها فلا جرم أنه سيضع قدمه الأولى على عليا درجات السلم، وينـــزل تدريجيًّا.

والميزة الثالثة التي لا بد من توافرها في التعليم الكامل هي أن يكون صالحًا للجميع بحيث يستطيع العمل به، وإن التعليم القرآني المذكور في هذه الآية يفي بهذا الشرط أيضًا، فبالرغم من أنه تعليم سام رفيع إلا أن كل إنسان يمكن أن يعمل به أيًّا كان مستواه وطبقته. فلا هو يكتفي بالدعوة إلى النوع الأدنى من الأخلاقيات فقط غاضًّا النظر عن إطفاء غليل الطامحين إلى ذروة الأخلاق

الفاضلة، ولا هو يدعو إلى قمة الأخلاقيات فقط بحيث يبقى الضعفاء محرومين من كسب الخير؛ بل يبين كل المدارج من الخير والسوء، لكي يساعد أهلَ السوء على ترك السيئات، ويعين أهلَ الخير على الترقي في الحسنات؛ إذ لا جدوى من أن نقول لمن هو غارق في وحل المساوئ عليك أن تبلغ من الصلاح بحيث تكون سندًا للدنيا كلها وتصبح بمثابة الأم للناس جميعًا، لأن هذا يعني أننا نحاول أن نعلّم الصغير الذي لا يزال يتعلم الألف والباء منهاجَ الماجستير. وبالمثل لو قلنا لمن قد بلغ مقامًا عاليًا في الصلاح: لا تخرج على القانون، ولا تعتدِ على أحد، ولا تظلم أحدًا، لعُدّ قولنا هذا مهزلةً. إنما يتأتى الإصلاح إذا سعينا لتخليص الغارق في المساوئ من الكبائر أولاً، أما الذي بدأ الترقي في الخير فلا داعي لتحذيره من المساوئ العادية لأنه قد تخلى عنها سلفًا، بل يجب توجيهه إلى الحسنات العظام. وكل هذه المزايا موجودة في هذا التعليم القرآني، فإنه يهدي إلى الحسنات كبيراتها وصغيراتها أيضًا، ويحذر من السيئات كبائرها وصغائرها، كما أن كل إنسان – أيًّا كان مستواه – يستطيع أن يفهم هذا التعليم ويعمل به.

وجدير بالذكر أن الله تعالى قد ذكر هنا ثلاث درجات لكل من الخير والشر.. أي ست درجات بالمجموع؛ ذلك لأننا نجد في النواميس الطبيعية أيضًا أن كل شيء يمرّ قبل اكتماله بست مراحل من التطور. فكأن الآية تبين المنهج الكامل لطالب الروحانية الذي إذا أكمل دراسته نال الشهادة في الكمال الروحاني. فعلى الغارقين في الآثام أن يسعوا أولاً للتخلص من مستنقع ﴿البغي﴾، فإذا تخلصوا منه سعوا للخروج من وحل ﴿المنكر﴾، ثم عليهم أن يخرجوا من غبار ﴿الفحشاء﴾، ليصلوا إلى حدود وادي ﴿العدل﴾، وبعدها يمرون بحديقة ﴿الإحسان﴾، ليصلوا بعد ذلك إلى البستان الذي تجري فيه عيون ﴿إيتاء ذي القربى﴾، ثم يدخلون الجنة الفيحاء الغناء؛ وإلى هذا المعنى نفسه أشار النبي ﷺ بقوله: "الجنة تحت أقدام الأمهات" (كنز العمال: الباب الثامن في بر الوالدين، الأم)، لأن هذه الآية تبين أن مرحلة "إيتاء ذي القربى" – التي تأمرنا بمعاملة الناس معاملةَ الأم بولدها– هي آخر

مرحلة من الكمال الروحاني، وبعدها يدخل الإنسان الجنة. والجنة مقام الذاكر الذي يستغرق ويتفانى في ذات البارئ تعالى، ويصبح قلبه عرشًا لله ﷻ، حيث يتحد المحب مع الحبيب بالصلة الوثقى لا انفصام لها.

هذا، ومن السُّنَّة قراءة هذه الآية في الخطبة الثانية من كل جمعة، وأول من سنَّ هذه السنة هو سيدنا عمر بن عبد العزيز أحد خلفاء بني أمية (تاريخ الخلفاء للسيوطي: ذكر عمر بن عبد العزيز)؛ مما يعني أن المسلمين منذ أوائل الإسلام كانوا يدركون عظمة هذه الآية.

إن النصارى يضيقون بهذه الآية ذرعًا، حتى قال القسيس "ويري" أن المسلمين يتفاخرون بها عبثًا، عليهم أن يقارنوها بتعليم ربنا المسيح التالي: "تحبُّ الربَّ إلَهَك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك. هذه هي الوصية الأولى والعظمى. الثانية مثلُها: تحبّ قريبَك (أي جارَك) كنفسك (متى ٢٢: ٣٧ - ٣٩)" (تفسير القرآن لـ "ويري").

ولكن الحق أن النصارى هم الذين يتباهَون بتعليم المسيح عليه السلام عبثًا، إذ شتان بينه وبين تعليم القرآن، بل هو بمثابة الخطوة الأولى إزاء ما يعلّمه القرآن. لا جرم أن المسيح عليه السلام علّمهم: "تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك"، ولكن مَن الذي وهب لنا القلب والنفس والفكر؟ فمهما أحببنا اللهَ بهذه الأشياء فلن يتجاوز حبُّنا له ﷻ دائرةَ العدل. ولكن كلمة "العدل" الواردة في القرآن الكريم تنطوي على مدلول أوسع من هذا التعليم الإنجيلي، لأن هناك أشياء كثيرة - بالإضافة إلى القلب والنفس والفكر - يجب أن يبذلها الإنسان في سبيل الله تعالى مثلَ العواطف والأحاسيس والأهواء والرغبات. فإذا لم يكن الله أحبَّ إلى الإنسان من كل ما سواه ﷻ فلا يمكن أن يكون عادلاً في حق الله تعالى. لا شك أن حبَّ المرء ربَّه أكثَرَ من نفسه شيء جميل، ولكن من الناس مَن يكون أولاده أحبَّ إليه من نفسه وقلبه أيضًا، ومنهم من يكون عزُّه وكرامته أحبَّ إليه من نفسه حتى إنه لا يتردد في أن يضحي بحياته حفاظًا على

كرامته. إذن فكلمة: "تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك" لا تؤدي معنى المحبة الكاملة والتضحية بكل أشكالها ومفهومها كما تؤديه كلمة "العدل" الواردة في القرآن. ولقد حث الله تعالى ﷻ على التضحية بالمشاعر والعواطف بسائر أشكالها في مواضع أخرى من القرآن الكريم حيث قال: ﴿قُلْ إِن كان آباؤُكم وأبناؤكم وإخوانُكم وأزواجُكم وعشيرتُكم وأموالٌ اقْتَرَفْتموها وتِجارةٌ تَخشَون كَسادَها ومَساكِنُ تَرضَونها أحبَّ إليكم مِن اللَّه ورسولِه وجِهادٍ في سبيله فتَرَبَّصوا حتى يأْتِيَ اللَّهُ بأمرِه واللَّهُ لا يهدِي القومَ الفاسقين﴾(التوبة:٢٤).

فانظر كيف أن القرآن قد بيّن هنا مقياسًا لمعرفة حب الله ﷻ عند كل إنسان. فمن الناس من يكون الشعورُ بالإحسان عنده قويًّا فيكون آباؤه أحبَّ إليه من كل شيء سواهم، فقيل له: إن كان آباؤك أحبَّ إليك من الله تعالى فلم تصل إلى درجة الإيمان بعد. ومنهم من يستولي عليه حب استمرار النسل أكثر من أي شيء آخر، فيكون أولاده أحبَّ شيء إليه، فقيل له ولأمثاله: إن كان أبناؤكم أحبَّ إليكم من الله ﷻ فلستم من أهل الإيمان المقبول. ومنهم من يحبون أحزابهم، فقيل لهم: إن كان إخوانكم أحبَّ إليكم من الله ﷻ فلستم من أهل الإيمان الحقيقي. ومنهم من يكون مغلوبًا بيد الشهوة، فقيل له: إن لم تجعل حبَّك لزوجك تابعًا لحبك لله ﷻ فلن تفوز برضوانه. ومنهم من يؤثر عشيرته على كل شيء آخر، فقيل له: إذا لم تحب الله ﷻ أكثر من حبك لقبيلتك فلن تحظى بقرب الله تعالى. ومنهم من يضنّ بالمال بحيث يكون ماله أعزَّ عليه من نفسه وولده، فهُناك كثير من البخلاء الذين أدت بهم الشقاوة لدرجة أنهم لم ينفقوا على علاج أولادهم المرضى، فماتوا وهم يقاسون آلام المرض؛ فقيل لمثل هؤلاء: عليكم أن تؤثروا حبَّ الله على حب المال وإلا لن تحرزوا مقامًا رفيعًا في الصلاح والتقوى. ومنهم من يقدّم حبَّ الوطن وخدمة القوم على كل أمر سواه، فيردّد

دائمًا: حب الوطن من الإيمان، مثلما حدث في بلادنا إبان الهجرة* حيث ترك مئات الآلاف أولادهم وديارهم وعقارهم وأموالهم باسم حب الوطن، فقيل لهؤلاء: إذا كان الوطن والبلد أحبَّ إليكم من الله ﷻ فلستم من المؤمنين.

هذا هو الشرح الوجيز لكلمة "العدل" كما بيّنه القرآن الكريم. فشتان بينه وبين التعليم الإنجيلي القائل: "تحب ربك من كل قلبك وكل نفسك وكل فكرك؟"

أما الجزء الثاني من هذا التعليم الإنجيلي فهو: "والثانية مثلها: تحبُّ قريبَك (أي جارك) كنفسك."

فأولاً: إن القول "والثانية مثلها" يخالف العقل. لا شك أنه تعليم هام، ولكنه لا يساوي التعليمَ الأول في الدرجة بتاتًا، لأن الله تعالى لا بد أن يؤثَر على كل ما سواه. فهل تعني كلمة "والثانية مثلها" أنه إذا تعارضت رغبةُ الجار مع حكمٍ من أحكام الله تعالى فلا نخالف رغبة الجار قائلين: إن حب الله وحب الجار سيّان! فأيهما يستحق الترجيح وبأي دليل؟

ثم إن هذا التعليم الإنجيلي لا يفوق "العدلَ"، لأنه يأمر كل إنسان بأن يحب جارَه تمامًا كما يحب نفسه هو، وهو ما يسميه الإسلام "العدلَ"، أو "الإحسانَ" على أسخى التقدير. ولكن الإسلام يريد أن يرفعنا إلى مقام أسمى من ذلك، فيأمرنا أن نعامل الناس معاملة تكون نزيهةً من شوائب الرياء أو انتظار المقابل والجزاء، شأنَ الأم التي هي أشد حبًّا لولدها من حبّها لنفسها، فتضحي براحتها من أجل راحته بمنتهى البشاشة والسعادة.

ثم أين تعليم الإنجيل مما يقدمه القرآن الكريم هنا من تعليم جامع؟ فإنه قد أمر بالخير ونهى عن الشر مع ذكر درجاتهما بترتيبها الطبيعي، مراعيًا شتى الطبائع

* يشير حضرة المفسر ﷺ هنا إلى بعض المسلمين الهنود السذج الذين هاجرو إلى أفغانستان بترغيب من الهندوس الماكرين احتجاجًا على سياسة الإنجليز الحاكمين، ثم رجع هؤلاء إلى الهند ثانية وقد فقدوا كل شيء، وكان ذلك في العقد الثاني من القرن العشرين (المترجم)

البشرية، ولكن الإنجيل قد غضّ الطرف عن هذه الأمور الهامة كافةً. فلا جرم أن تعليم القرآن الكريم هو الجامع والكامل والأسمى والصالح للعمل.

وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩٢﴾

شرح الكلمات:

كفيلاً: كفَل الرجلَ والصغيرَ كَفْلاً وكَفالةً: عالَه وأنفقَ عليه وقامَ به، فهو كافلٌ. كفَل بالمال كَفْلاً وكُفولاً: ضمَنه، فهو كفيل. والكفيلُ: المثيلُ؛ الضامنُ كالكافل. يقال: رجلٌ كفيلٌ وامرأةٌ كفيلٌ. وفرّقَ الليثُ بين الكفيل والكافل فقال: الكفيل الضامنُ، والكافل هو الذي يعول إنسانًا (الأقرب).

التفسير: اعلم أن "عهد الله" المذكور هنا قد شرحه القرآن الكريم في مواضع أخرى وهي:

١- يقول الله تعالى: ﴿إن الذين يبايعُونكَ إنما يُبايعون اللَّهَ يَدُ اللَّه فوقَ أيديهم فمَن نكَث فإنما ينكُثُ على نفسه ومَن أوفَى بما عاهَدَ عليهُ اللّهَ فسيؤتيه أجرًا عظيمًا﴾(الفتح:١١). وهذا يوضح أن "عهد الله" كان يعني في حياة النبي ﷺ عهدَ البيعة على يده المباركة، أما بعد وفاته فيعني الدخول في الإسلام.

٢ - ويقول الله ﷻ ﴿وقالت طائفةٌ من أهلِ الكتاب آمنوا بالذي أُنزلَ على الذين آمَنوا وَجْهَ النهار واكْفُرُوا آخرَه لعلهم يَرجعون*... بلى من أَوفَى بعهده واتَّقَى فإن اللَّهَ يحبُّ المتّقين* إن الذين يشتَرُون بعهد اللَّه وأَيمانهم ثَمَنًا قليلا أولئك لا خَلاقَ لهم في الآخرة ولا يكلِّمُهم اللَّهُ ولا ينظُرُ إليهم يَومَ القيامة ولا يزكِّيهم ولهم عذابٌ أليمٌ﴾(آل عمران: الآيات ٧٣ و٧٧ - ٧٨). و"الأيمان"

جمع اليمين وهي الحلف. والمراد من قوله تعالى ﴿لا خَلاقَ لهم﴾ أن لا نصيب لهم. ولقد أوضحت هذه الآية أيضًا أن المراد من "عهد الله" هنا الإسلام.

٣- ويقول الله تعالى: ﴿ولقد كانوا عاهَدُوا اللَّهَ من قبلُ لا يُولُّون الأَدبارَ وكان عهدُ اللَّه مَسئُولا﴾(الأحزاب: ١٦)، ولكننا لا نجد في القرآن ولا في الحديث أي عهد من قبل المنافقين بأنهم لا يولّون الأدبار؛ غير أننا نجد أمرًا إلهيًّا يقول: ﴿يا أيها الذين آمَنُوا إذا لَقيتم الذين كفَروا زَحْفًا فلا تُولُّوهمُ الأَدبارَ﴾(الأنفال:١٦)؛ فثبت بذلك أن المراد من "عهد الله" هو عهد البيعة الذي يعاهد فيه المبايع على أن يعمل بأحكام الله تعالى كلها، ويقوم بكل عمل حسن.

٤- كما أن الله تعالى قد شرح هذا العهد في قوله تعالى ﴿إن اللَّهَ اشْتَرَى من المؤمنين أنفسَهم وأموالَهم بأن لهمُ الجَنّةَ يُقاتلون في سبيلِ الله فيقتُلون ويُقتَلون وَعْدًا عليه حقًّا في التوراة والإنجيل والقرآن ومَن أَوفَى بعهدِه من اللَّه فَاسْتبشِروا ببيعكمُ الذي بايَعتم به وذلك هو الفوزُ العظيمُ﴾(التوبة: ١١١).

تؤكد هذه الآيات القرآنية كلها أن عهد الله يعني الإسلام، إذن فالمراد من الآية التي نحن بصدد تفسيرها أنكم إذا رضيتم بالإسلام دينًا فعليكم أن تعملوا بأحكامه كما ينبغي. علمًا أنه تعالى قد بين في الآية السالفة خلاصة تعاليم الإسلام وقد أكد الآن مرة أخرى على العمل بها.

في مستهل هذه الآية وصّانا الله تعالى أن نَفيَ بما عاهدناه عليه، كما نهانا عن أن نخلف المعاهدات التي تتم بيننا نحن البشر باسم الله تعالى، لأننا إذا خالَفْنا ما جَعَلْنا الله عليه وكيلاً ضامنًا فقد أسأنا إليه ﷻ، فلا بد أن يغار ﷻ ويعاقبنا على ذلك.

ومن الملاحَظ أن الله تعالى قد أكّد هنا أيضًا الموضوع نفسه الذي ذُكر في الآية السابقة.. أي الحث على أداء نوعين من الحقوق: حقوق الله وحقوق العباد؛ مما يعني أن الإسلام أو "عهد الله" اسمان لمسمًّى واحد ألا وهو إنشاء العلاقة السليمة مع الله ومع العباد.

وليكن معلومًا أن التأكيد على الوفاء بالمعاهدات التي تتم بين البشر باسم الله تعالى لا يعني أن لا حرج في أن نخالف العهد الذي لا نجعل اللهَ فيه كفيلاً وضامنًا.. أعني الوعد الذي لا نحلف فيه باسمه ﷻ؛ ذلك لأن العهد الذي نقطع مع الله تعالى يتضمن أيضًا الوعد بأننا لن نقول إلا الحق دائمًا. فالواقع أن الآية تحثنا على الوفاء بكل ما يمكن أن يكون الله ضامنًا عليه أي ما يكون مبنيًّا على الحق والسداد.. أو بتعبير آخر.. ما يندرج تحت العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، أما ما سواه من وعود ظالمة مما يندرج تحت الفحشاء والمنكر والبغي فالوفاء به غير ضروري بل هو معصية؛ ذلك لأن الإنسان عندما يَعِدُ شخصًا بأمر حلال فكأنه يعاهد اللهَ أيضًا عليه ويكون الله ضامنًا له، لذلك لا بد من الوفاء به؛ ولكن إذا تعاهَدَ الإنسان على ارتكاب ظلم أو معصية فعليه أن لا يفي بمثل هذا الوعد، لأنه لن يُسأل عنه، بل يجب ألا يفي به لأنه إثم، ولا يمكن أن يكون الله تعالى ضامنًا لـــه، بل ينهى عنه.

وهذه الوصية الإلهية تخص أولئك الذين يحلفون على أمر حرام، ثم يصرّون على الوفاء به بحجة الوفاء بأيمانهم.

وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾

شرح الكلمات:

نقضَتْ: نقَض البناءَ: هدَمه. نقَض العظمَ: كسَره. نقَض الحبلَ: حلَّه (الأقرب).

غزلَها: غزَلت المرأةُ القطنَ والصوفَ: مدَّتْه وفتَلتْه خيطانًا. الغزْلُ: مصدرٌ؛ المغزولُ (الأقرب).

أنكاثًا: جمعُ نِكْث وهو: ما نُقض من الأكسية والأخبية ليُغزَل ثانيةً (الأقرب).

دَخَلاً: الدخَل: ما داخَلَك من فساد في العقل أو في الجسم؛ الخديعةُ والمكر، وفي القرآن ﴿لا تتخذوا أيمانَكم دخَلاً بينكم﴾، و(دَخَلاً) مفعول له (الأقرب).

أربَى: اسمُ تفضيل من ربا يربو المالُ: زادَ ونما. وأربى عليه كذا: زادَ (الأقرب).

يبلوكم: بلاه يبلوه بلاءً: جرَّبه واختبره (الأقرب).

التفسير: اعلم أن هذه الآية يمكن اعتبارها مستقلّةً بمعناها، كما يمكن أن نعتبرها مرتبطةً بما قبلها. فلو اعتبرناها استمرارًا للموضوع السابق فالمعنى: عليكم أن تَفُوا بالمعاهدات وفاء تامًّا، وإلا فسوف تتلاشى من بينكم الثقة المتبادلة، وسيدمَّر شمل جماعتكم المتماسكة بكل قوة.

الحق أن الالتزام بالعهود جدُّ ضروري للوحدة القومية، لأن حسن المعاملة هو قوام أي جماعة، ولا يتأتى هذا إلا إذا التزم الناس بالعهود، أما إذا انعدم الوفاء بها أدى إلى الاستياء وعدم الثقة بين المجتمع، وبالتالي يصبح سوء الظن هو الحكم السائد فيه، وهكذا فإن سوء التصرف من بعض الأفراد يحرم المئات من المنافع المنوطة بالنظام القومي. فينبغي للإنسان أن يفي بما وعد مهما كلّفه ذلك من بذل وتضحية، ذلك لكي تتوطد الثقة بين الناس، فيكونوا مستعدّين لمساعدة الآخرين بطيب النفس، ويستمرّ القوم في الترقي والازدهار.

وبالإضافة إلى العهود الفردية هناك عهود قومية أيضًا حيث يتعاهد أفراد القوم على يد أحد منهم لبذل كل ما في وسعهم للرقي القومي، وهذا ما يسمّى بالخلافة؛ والآية تشير إلى هذا العهد أيضًا، حيث تنبّهنا أن الله تعالى قد جعلكم أمة واحدة تحت نظام واحد، وقد حلفتم بالله على طاعة هذا النظام، فعليكم

الآن الإذعان لهذا النظام دومًا، وإلا ستزول هيبة الإسلام التي توطدت بسبب تضحياتكم، وستضطرون لبذل الجهود من جديد لنشر هيبة الإسلام مرة أخرى.

والحق أن القرآن قد بين هنا حكمة سياسية عظيمة. إن الفُرقة بين بضعة أفراد من القوم يقضي على النظام كله، فيذهب كلُّ ما كسبه القوم سدًى؛ وإقامة النظام مرةً أخرى يتطلب بذلَ جهود وتضحيات جسيمة من جديد، ومع ذلك لا يكون الأمر كما كان في الأول، لأن الثوب المرقَّع لا يكون كالجديد، ولأن القلوب إذا تنافَرَ ودُّها فمثلُ الزجاجة كسرُها لا يُجبَر. لذا هناك حاجة ماسة لبذل جهود مستميتة للوفاء بهذا العهد.

كما يتضح من كلمات هذه الآية أنها تتحدث أيضًا عن الاتفاقيات التي تتم بين المسلمين والأمم الأخرى؛ وبالنظر إلى هذا المعنى يمكن اعتبار الآية موضوعًا مستقلاً جديدًا، وهو أنه كما لا بد من مراعاة ما يعقده الإنسان مع الله ﷻ أو مع قومه من عهود، كذلك لا مناص له من الالتزام بالمعاهدات التي تتم مع الأمم الأخرى، وإلا سيدمَّر سلام العالم وستعمّ الفوضى، كما تشير إلى ذلك كلماتُ ﴿دَخَلاً بينكم﴾ و﴿كالتي نقَضتْ غزلَها من بعد قوة أنكاثًا﴾.

ونظرًا إلى هذا المفهوم يمكن أن تفسَّر الآية بما يلي:

١- لا يجوز لكم أيها المسلمون أن تعقدوا الصلح مع قوم لا تقدرون على كسر شوكتهم، وفي نيتكم أن يطمئنوا جانبَكم نتيجة هذه الاتفاقية، فإذا اطمأنوا أعددتم لهم عُدّتَكم في الخفاء ودمّرتموهم على حين غفلة منهم. كانت ولا تزال مثل هذه التصرفات تقع في العالم السياسي، ولكن أحكام الإسلام مبنية على العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، فإنه يكره مثل هذه التصرفات وينهى عن إتيانها ولو كانت ضد عدو لدود للإسلام.

٢- لا تعقدوا اتفاقية مع شعب ضعيف بحجة المساعدة، وغرضُكم الأصلي أن تستولوا على مقادير بلادهم، وذلك كما تفعل الدول الأوروبية في هذا العصر.

٣- لا تَعاهَدوا من أجل إضعاف الأمة المعاهدة ووقفها عن الرقي، بل إذا عقدتم الصلح مع قوم فيجب أن يكون صلحًا كامِلاً وصادِقًا.

ما أروَعَ ما يعلّمنا الإسلام هنا من أخلاق عالية! إنه ينبّه أن التفوق القومي شيء حسن دونما شك، ولكن لا يجوز تحقيقه باللجوء إلى الخداع والغدر بالآخرين. يجب أن تتم الاتفاقيات بهدف توطيد الأمن وإقرار السلام، وليس للكيد بالآخرين.

وعلى النقيض انظروا ما تفعله أوروبا اليوم. إنهم يهدفون بالاتفاقيات إضعافَ الشعوب الأخرى مثلما حدث في الماضي بالصين ومصر وتركيا وإيران وكذلك في الهند قبل فترة، ومثلما يحدث اليوم في بولندا وفرنسا وفنلندا، والنرويج ورومانيا وتشيكوسلوفاكيا وغيرها.

كم هو رائع وجميل هذا التعليم الإسلامي! والحق أن العمل به يضمن اختفاء جميع الفتن والفساد من الدنيا مرة واحدة. والواقع أن مثل هذه الاتفاقيات المغرضة هي التي كانت وراء اندلاع الحربين العالميتين الأولى والحالية. فلولا "معاهدة فرساي" (Versailles) لما نشبت الحرب الحالية بين الاتحاديين وخصومهم. إن القرآن الكريم يحرّم مثل هذه المعاهدات، ويوصينا أن لا نعقد أية اتفاقية إلا بحسن النية وبهدف واحد هو: توطيد السلام.

وأما قوله تعالى ﴿إنما يبلوكم الله به﴾ فنبّه فيه المسلمين بأننا سوف نتيح لكم عن قريب فرصًا كهذه لنرى مَدى تمسككم بتعاليم الإسلام الأخلاقية إبّان اقتداركم، وما إذا كان الرقي المادي سيدفعكم إلى اتباع خطوات الأمم الأخرى أم لا؟

إن هذا البيان القرآني يشكّل برهانًا عظيمًا على صدق القرآن الكريم وعلى تفوُّق الإسلام على الديانات الأخرى! ذلك لأن الله ﷻ قد أنزل هذه الأحكام المتعلقة بحكومة إسلامية قوية في وقت كان النبي ﷺ لا يزال فيه بمكة وما كان المسلمون يملكون حتى شبرًا من الأرض؛ كما كانت هذه الأحكام رائعة بحيث لا

يسع أي إنسان شريف إلا الاعتراف بفضل تعليم القرآن الكريم. أليس صحيحًا أنه – بالرغم من انقضاء أكثر من ١٣ قرنًا على نزول القرآن – لا يزال صدق هذا التعليم وفضله ينكشفان باستمرار؟ أليس كل ما يقع في الدنيا من قلاقل وما تتوجسه الدول بعضها من بعض من مخاوف إلا من جراء الإعراض عن هذه الأحكام الإسلامية؟

وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

التفسير: قد يتساءل هنا أحد قائلاً: لا شك في سمو هذا التعليم، ولكن لماذا لم ينفذه الله ﷻ جبرًا حتى تبقى الدنيا محمية من هذه الفتن؟ فرد الله ﷻ على ذلك في هذه الآية موضحًا: لا جرم أننا لو أردنا تنفيذ مشيئتنا لفعلنا هذا، ولكننا قرّرنا اختبار الإنسان بحرية الخيار؛ فمن آثر الضلالَ على الهدى فلن نمنعه من ذلك، ومن أراد الإيمان هديناه إليه؛ ذلك لأننا قد جعلناه مكلَّفًا ومسئولاً عن أعماله، ولا يجوز تكليفه ما لم يعطَ القدرةَ والحرية ليختار ما يحلو له: الهدى أو الضلال.

والحق أن الآية تمثّل نصيحة للمسلمين إذ قد يخطر ببالهم: ما الحرج من عقد اتفاقيات ملتوية كهذه لصالح الإسلام؟ فالله تعالى يؤكد هنا تحريمها كليةً، وإن كانت بنية تأييد الإسلام؛ ذلك لأنه لو كان جعل الدنيا كلها على طريقة واحدة أفضلَ وأولى من التمسك بمبادئ العدل والإنصاف كلها لجمعهم الله جميعًا على الهدى ولم يتركهم يتورّطون في إثم الغدر؛ لذا فجمعُ العالم كله على الإسلام أيضًا ليس مما يسوّغ لكم الغدر في المعاهدات. إذن فالآية تحذير إلهيّ بأن أية أمة

ستلجأ إلى الجبر والعدوان لتوحيد الدنيا على دين واحد فلن تنجح في هدفها أبدًا، ولا بد أن تُسأل عن ذلك وتعاقَب.

والظاهر أنه من المستحيل أن تُرغَم أيُّ أمةٍ على البقاء تحت سيادة أمة أخرى لفترة طويلة، والأمم التي تستعبد الآخرين تذوق وبال ذلك في النهاية حيث تفسد أخلاقها بأخلاق المستعبَدين. والحق أن هذا هو أكبر سبب وراء الدمار الذي حل بالمسلمين، لأن أجيالهم تعلمت أخلاق العبيد الذين كانوا في بيوتهم، فتردَّت أخلاق هذه الأجيال شيئًا فشيئًا حتى صارت أخلاقهم كأخلاق العبيد تمامًا. فلو أنهم قضوا على الرقّ بسرعة عملاً بتعليم القرآن لما رأوا هذا اليوم المشئوم. فدمارهم يمثّل منظرًا مؤلمًا لصدق قول الله تعالى: ﴿ولتُسألُنّ﴾.

وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٩٥

التفسير: لقد أعاد الله ﷻ هنا قولَه ﴿ولا تتّخذوا أيمانَكم دَخَلاً بينكم﴾، لينبه على أن عقد الاتفاقيات بنية سيئة أو نقضَها بعد توكيدها عملٌ سيئٌ من حيث المبدأ، ولكنه يصبح أسوأ للمسلمين خاصةً، لأنهم حَمَلَة لواء الدين الحق، وسوف يؤثر سلوكهم الخاطئ – ولو في الأمور السياسية – على الناس سلبيًّا، وينفّرهم عن دين الله الحق. كما أن هذا لن يأتي بنتائج طيبة في حق الأمة الإسلامية نفسها، لأن عدوى هذا السلوك الخاطئ سيسري إلى معاملات أفرادها أيضًا، فيصيبهم الضعف والاضمحلال.

وقوله تعالى ﴿وتذُوقوا السوءَ﴾ إشارة إلى أنكم لو نكثتم العهود من أجل المصالح الدنيوية فستضرون بالدين.

أما قوله تعالى ﴿فتَزِلَّ قَدَمٌ بعد ثبوتها﴾ فالمراد من ﴿قَدَم﴾ هنا الحكومة القوية. وقد جاءت ﴿قَدَمٌ﴾ نكرةً على سبيل التعظيم، وتحمل بشرى بقيام حكومة عظيمة للمسلمين.

إن هذا الحث الشديد للمسلمين على الوفاء بالمعاهدات كان في الواقع يمثّل نبأً من الله ﷻ بأنه سوف تُكتب لهم الغلبة على الأمم كلها. ذلك لأن الأمة التي يؤدي خروجها على المعاهدات إلى تفشي الفساد في العالم لا بد أن تكون أمة غالبة على الأمم الأخرى، لأن الأقوام الضعيفة لا تتجاسر على نقض الاتفاقيات، كما لا يخل نقضها للمعاهدات بأمن العالم. فثبت أن الله تعالى قد نبه المسلمين إلى العظمة التي تنتظرهم، ناصحًا إياهم بأن يعقدوا الاتفاقيات بوعي وتدبر، وأن يفوا بها بصدق وأمانة.

إنـــه لمما يبعث على الأسف والحزن أنه لم يَعِ هذا الدرس القرآني إلا المسلمون الأوائل وحدهم، أما الذين أتوا بعدهم فنسوه، فهلكوا. ولقد أتى على المسلمين حـــين من الدهر كان لفظ "المسلم" فيه مترادفًا للثقة والاعتماد بحيث إذا عرف الناس أن فلانا مسلم لم يروا أية حاجة إلى ضمان أو كفالة. وأما اليوم فليس في العالم كلمة هي أقل اعتبارًا وثقةً من كلمة "المسلم". إنا لله وإنا إليه راجعون!!

وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾

التفسير: هذه الآيات حملت نبأً عن رقيِّ المسلمين وقيام دولتهم، وعن أن العدو سيتآمر على حكومتهم ببثِّ العيون بين ظهرانيها وإغراء بعض أفرادها بالمال، لذلك قد حذر الله هنا المسلمين سلفًا من هذه الظروف منبهًا إياهم من أن يقعوا في فخ العدو، فأوضح: سيأتي زمن أيها المسلمون يحاول فيه أهل مكة إغراءكم بالمال لتبنّوا لهم أسرار النبي ﷺ، فحذارِ ثم حذارِ أن تفعلوا ذلك، ولا تشتروا

بعهد الله ثمنًا قليلاً، ولا تتهاونوا في الوفاء به؛ فإن هذه الرشوة ثمن قليل إزاء الأجر العظيم الذي ينتظركم عند الله تعالى، فهو خير لكم جدًّا بحيث لا تستطيعون الآن تصوره.

وفعلاً ما كان المسلمون ليستوعبوا أبعاد هذا النبأ وهم في مكة. ورد في الحديث أن سيدنا عمر ﷺ قال: لم أعرف تأويل قوله تعالى ﴿سيُهزَم الجمعُ ويولّون الدبرَ﴾ حتى كان يوم بدر وفتح مكة.*

مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾

شرح الكلمات:

ينفَد: نفَد الشيءُ ينفَد نفادًا: فنِيَ وذهَب وانقطعَ (الأقرب).

التفسير: لقد نبّه الله تعالى هنا أن أموال الرشوة التي من أجلها يغدر الناس أقوامَهم تنفد وتفنى في آخر الأمر، ولكن العزة التي ينالها الإنسان برقي قومه عظيمة ولا تزول بسرعة.

كما أخبر ﷻ أنه مهما كثُر المال الذي يقدمه العدو لأحد كرشوة فإنه مال محدود على كل حال، ولكن الجزاء الذي يناله الإنسان من الله ﷻ نظير الصلاح والتقوى والوفاء فهو جزاء أبدي حيث تمتد خيراتُه من هذه الحياة إلى الآخرة.

* ورد في الحديث: "عن عكرمة ﷺ قال: لما نـــزلتْ ﴿سيُهزَم الجمعُ ويولّون الدبرَ﴾ قال عمر ﷺ: جعلـــتُ أقول: أيُّ جمعٍ سيُهزَم؟ حتى كان يوم بدر، رأيتُ النبي ﷺ يَثِبُ في الـــدرع وهو يقول: ﴿سيُهزَم الجمعُ ويولّون الدبرَ﴾، فعرفتُ تأويلَها" (الدر المنثور: سورة القمر).

وقال الله تعالى ﴿بأحسنِ ما كانوا يعمَلون﴾ أي أننا لا نتعامل معهم كزبون بخيل يختار أردأ حبة من السلع ويقيس ثمن الباقي بحسبها، بل سوف ننتقي أفضل عمل من أعمالهم، ونقيس عليه جزاء أعمالهم العادية الأخرى.

كما بيّن الله بذلك أنه تعالى سيجزيهم بأكثر مما عملوا، لأن جزاء الحسنة الواحدة سيضاعَف عشر مرات (الأنعام: ١٦١).

ولكن الله تعالى نبّه أيضًا أن هذا الجزاء المضاعف إنما يكون للصابرين أي الذين لا يخافون المشاكل والصعاب، ولا يشترون حطام الدنيا بالدين.

مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾

التفسير: لقد نبّه الله ﷻ هنا المسلمين من جهة أن الإسلام يُقرّر الحقوق للجنسين كليهما، وأنه تعالى سيجزي في هذا الكفاح كلاً من الذكر أو الأنثى وفقَ عمله جزاءً سواءً دونما تمييز بينهما؛ ومن جهة أخرى نبّه الكفار أنكم تقتلون الأنثى، فكيف يمكن أن يوضع زمام الحكم في أيدي الظالمين أمثالكم. كلا، إنما ننشئ الآن نظامًا سيحافظ على حقوق الجنسين كليهما.

ما أقوى هذه الآية برهانًا على صدق الإسلام! فبعد مرور آلاف السنين على تاريخ البشرية أقرّ الإسلام لأول مرة للجنسين حقوقهما، وذلك حين لم يكن المسلمون قد نالوا الحكم بعد، وبالرغم من هذه الحقيقة الناصعة يقول الظالمون من أعداء الإسلام أنه لم يحافظ على حقوق المرأة!

فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾

شرح الكلمات:

فاسْتَعِذْ: عاذَ به من كذا يعوذ عَوذًا وعياذًا: لَجَأَ إليه واعتصَم، تقول "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم" أي ألتجئُ إلى الله وأعتصمُ من الشيطان. استعاذ به منه: اعتصمَ ولجأَ إليه منه (الأقرب).

التفسير: لقد زعم البعض أن قوله تعالى ﴿فإذا قرَأتَ القرآنَ﴾ يعني أنك إذا ختَمت قراءة القرآن فاقْرَأ المعوِّذتين أي السورتين الأخيرتين من المصحف. ولكن هذا الرأي ليس بسليم، لأن هاتين السورتين موجودتان في المصحف، ولا بد للقارئ أن يقرأهما على كل حال لدى وصوله إلى آخر القرآن؛ لذا فالمراد الحقيقي هو أن نبدأ تلاوة القرآن الكريم بـــقولنا "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم"، كما هو ثابت من السنة الشريفة. (الترمذي: فضائل القرآن)

لقد قال الله ﷻ من قبل إن الصابرين سينالون جوائز كبيرة، والآن أخبرنا عن واحدة من الطرق التي تضمن لنا هذه الجوائز والنعم، فقال: عليكم أن تعتصموا بحمى الله تعالى من هجمات الشياطين، لترِثوا هذه النعم، ولا تَضلّوا الطريق.

لقد زعم بعض الجهلة – بناء على آراء وروايات باطلة – أن هذه الآية تخاطب النبي ﷺ، حيث قالوا إن النبي كان يقرأ سورة النجم ذات مرة، فأجرى الشيطان– والعياذ بالله– على لسانه ﷺ كلمات تنمّ عن الشرك، فأمره الله تعالى أن يستعيذ باسمه دومًا قبل قراءة القرآن، حتى لا يستطيع الشيطان إلقاء أي شيء على لسانه. (تفسير القرآن للقسيس "ويري" مجلد ٣ ص ٤٣ و١٦٧)

ولكن الزعم أن هذه الآية تخاطب النبي ﷺ زعم باطل، وذلك للأسباب التالية:

أولاً: إن هذه الأسطورة باطلة لا أساس لها من الصحة، وسوف نناقشها بالتفصيل في محلها الأصلي في سورة الحج. وثانيًا: لا تمتّ هذه الخرافة إلى السياق بأية صلة، إذ كيف يمكن لعاقل أن يصدق بأن يكون الحادث المشار إليه قد وقع

لدى قراءة سورة النجم، ولكنه يُسجَّل في سورة الحج، ثم يؤمر النبي ﷺ بالاستعاذة في سورة النحل هنا خلال الحديث عن غلبة الإسلام. إنه أمر لا يستطيع أحد استيعابه. ونعوذ بالله من هذه الخرافات!

الحق أن هذه الآية منسجمة تمامًا مع موضوع الآيات السابقة، وأن ربطها بأية خرافة كهذه إنما هو ظلم عظيم.

ثم يجب أن لا يفوتنا قولُ النبي ﷺ بأن شيطانه قد أسلم فلا يأمره إلا بخير (مسند أحمد ج ١ ص ٢٥٧). فكيف يمكن لعاقل - بعد هذا التصريح النبوي - أن يقبل زعم هؤلاء الجهلة بأن الشيطان ألقى على لسان النبي ﷺ كلمات تنمّ عن الشرك؟ ما دام شيطانه مسلمًا، والمسلم يكون موحِّدًا، فلا يمكن لهذا الشيطان الموحد - لو كان يملك عليه ﷺ أي تصرف أصلاً - أن يُجري على لسانه ﷺ ما ينمّ عن الشرك. إذًا فربطُ هذه القصة المنحولة بهذه الآية لبهتان عظيم ضد النبي ﷺ.

أما السؤال: ما الداعي إذن للاستعاذة قبل تلاوة القرآن الكريم؟ فجوابه: أن السارق إنما يأتي حيث الكنز، وإنما يهتم الإنسان بمقاومة من يتوجس منه الخطر؛ والقرآن الكريم كنز روحاني عظيم يتمنى الشيطان سرقتَه، كما أن القرآن هو السلاح الذي تُشَجّ به هامة الشيطان، ولذلك يسعى الشيطان وأعوانه جاهدين لإبعادَ الناس عن القرآن، ومن أجل ذلك أُمرنا أن نعوذ بالله من الشيطان قبل تلاوته.

ويمكن أن نستنتج من ذلك حكمًا آخر وهو أننا ما دمنا مأمورين بالاستعاذة بالله من الشيطان حتى قبل قراءة القرآن أيضًا، فما أحوَجَنا إلى ذلك قبل البدء في سائر الأعمال الأخرى!

أما السؤال: لماذا ذُكر هذا الحكم هنا بالذات، فجوابه: أن القرآن الكريم قد صرّح هنا لأول مرة وبكل وضوح عن قيام الدولة الإسلامية - مما لا شك فيه أنه قد أخبر عن قيامها من قبل أيضًا، ولكن تلميحًا لا صراحةً - ومن الطبيعي

أنه لدى الحديث عن الرقي المادي ينصرف تفكير ضعاف الإيمان عن الدين إلى الأمور الدنيوية. وبما أن الله تعالى قد أخبر المسلمين هنا بالترقيات المادية فلم يلبث أن أمرهم أيضًا بأن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم قبل قراءة القرآن دائمًا، كيلا تصرف أنباءُ الفتوحات المادية هَمَّهم عن أهداف الدين العليا، فيؤثروا الدنيا على الدين.

كم يفيض هذا الكلام بالقداسة والصفاء! وكم فيه من أسباب لحماية إيمان المؤمنين! ومع ذلك لا يبرح أعداء الإسلام الظالمون يقولون أن القرآن الكريم استمال قلوب القوم إلى الإسلام بشتى الإغراءات! (ستيارث بركاش (ترجمة أردية) طبعة ١٩٣٩ باب ١٤ ص ٦٩٦).

إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٠٠﴾

التفسير: يظن البعض أنه من المستحيل أن يحب الإنسان ربه وهو منشغل بأمور الدنيا، حيث نُسب إلى المسيح عليه السلام في الإنجيل القول التالي: "إن مرور جَملٍ من ثَقْبِ إبرةٍ أَيْسَرُ من أن يدخل غنيٌّ إلى ملكوت الله" (متى ١٩: ٢٤)، وأيضًا: "ما أَعْسَرَ دخولَ ذوي الأموال إلى ملكوت الله، لأن دخول جَملٍ من ثقبِ إبرةٍ أيسرُ من أن يدخل غني إلى ملكوت الله" (لوقا ١٨: ٢٤ و٢٥)؛ لذا كان من الممكن أن يطعن أصحاب هذا الرأي في القرآن فيقولوا: ما دام من المحتمل أن يؤدي خبر الفتوحات المادية إلى ضعف إيمان البعض فلماذا بشر القرآن أصلاً بالغلبة المادية؟ فردّ الله عز وجل على ذلك مفنّدًا قولهم: إنما يتغلب الشيطان على ضعاف الإيمان دومًا، أما المؤمن الحقيقي فإنه رغم انشغاله بشؤون الدنيا لا يتغافل عن الدين؛ وتحذيرنا هذا موجَّه إلى ضعاف الإيمان فحسب، لأن الذين هم أقوياء الإيمان فعلاً لن يتهاونوا في الدين بسبب واجباتهم الدنيوية. وكأن الإسلام

يعلّمنا أن نكون مصداقًا للمثل القائل: قلبي مع الحبيب ويدي في الشغل. وهذا هو المقام الأعلى، ومن أجل ذلك لم يأمر الإسلام بترك الدنيا كلية، بل حثنا على إصلاح أهلها مع قيامنا بالشؤون الدنيوية. ذلك لأنه لو تم الفصل بين الأبرار والدنيا لما أمكن إصلاح أهلها أبدًا. أما إذا صار زمام الأمر في أيدي أولئك الذين يتمسكون بالعدل والإنصاف والتقوى، رغم تملُّكهم الحكم والسلطة، فعندئذ هناك إمكانية لإصلاح الدنيا بتقديم نموذج مثالي للآخرين. انظروا كيف انقطع النبي ﷺ وصحابته عن الدنيا رغم ممارستهم السلطة والحكم، وضربوا في هذا المجال أروع مثال بحيث لا تزال قلوب أولي الألباب ترقص من ذكراه طربًا، رغم مرور ١٣ قرنًا على ذلك.

إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾

التفسير: اعلم أن ضمير الغائب للواحد (به) في قوله تعالى ﴿هم به مشركون﴾ يمكن أن يكون عائدًا على كلمة "الرب" المذكورة من قبل في قوله تعالى ﴿على ربهم يتوكلون﴾، فيكون المعنى: أن الشيطان لا يملك السلطة إلا على الذين يشركون بالله.

وقد يكون هذا الضمير راجعًا إلى الشيطان، فالمعنى: أنهم يقعون في الشرك بسبب إغواء الشيطان.

لقد نبّه الله تعالى بذلك أن الشيطان يمارس سلطته على أصحابه وأعوانه. فمن استعاذ بالله ﷻ فكأنما أعلن عداوته للشيطان، وهكذا خرج عن تصرف الشيطان وسلطانه.

لقد تبين من ذلك أيضًا أن قوله تعالى ﴿فإذا قرأتَ القرآن فاستعذْ بالله﴾ لا يخص النبيَّ ﷺ بل غيرَه، وأن قصة إلقاء الشيطان على لسانه ﷺ كلمات الشرك

قصة ملفَّقة باطلة؛ ذلك لأنه تعالى يصرّح هنا أن الشيطان يتسلط على الذين يتخذونه وليًّا، وليس على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، وقد أعلن النبي ﷺ مرارًا وتكرارًا أن لا سند له ولا عماد إلا الله وحده ﷻ.

وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

التفسير: الآية هي في الأصل العلامة والدليل، وإن أُطلقت أيضًا على جُمل القرآن الكريم، لأن كل جملة منه تمثّل في حد ذاتها علامة للهداية؛ ولكن هذا المعنى الثاني ليس حقيقيًّا، إذ لا نجد القرآن قد استخدم الآية بهذا المعنى بشكل قطعي. لا شك أنه يبدو في بعض مواضع القرآن وَكأن كلمة "الآية" قد استُعملت هناك بمعنى الجملة، ولكن هذا ليس بأمر قطعي، إذ يمكن أن يراد بالآية هناك العلامة والدليل أيضًا. غير أن المسلمين قد استعملوها منذ البداية بمعنى الجملة حيث كان الصحابة يسمّون الجُمل القرآنية آيات، كما نجد هذا الاستخدام في كلام النبي ﷺ أيضًا (البخاري: كتاب الجهاد وكتاب فضائل القرآن). فاشتبه الأمر على بعض المفسرين بسبب هذا الاستخدام، ففسّروا هذا اللفظ بمعنى الجملة القرآنية حتى في هذه الآية التي نحن بصدد تفسيرها، فقالوا أن المراد أن الله تعالى كلما نسخ آية من آيات القرآن وأنزل مكانها غيرها قال الكفار للنبي ﷺ: إنما أنت مفتر على الله تعالى. لو كان القرآن من عند الله لما اضطُررت لنسخ آياته؟ (تفسير القرطبي)

ولكن هذا المعنى ليس بصحيح في رأيي، إذ ليس من الثابت تاريخيًّا أن آية من القرآن استُبدلت بآية أخرى، وإلا لشهد على ذلك مئاتُ الحفّاظ الذين كانوا قد حفظوا القرآن عن ظهر قلب في حياة النبي ﷺ، ولقالوا: لقد حَفَّظَنا رسولُ الله ﷺ في أول الأمر آية فلانية، ثم ألغاها وحفّظنا مكانها آية كيت؛ مما يمثّل برهانًا

قطعيًّا على أن كل الأفكار الرائجة حول نسخ آيات من القرآن الكريم إنما أساسها الظن، وليس العلم والواقع. إنني لا أنكر أن بعضًا من الأحكام قد استُبدلت في زمن النبي ﷺ، ولكني لم أجد أية شهادة تدل على أن حكمًا من الأحكام نزل في القرآن في البداية بشكل ثم استُبدل بحكم آخر. وأرى أن الأحكام التي كانت ذات صبغة مؤقتة قد نزلت على النبي ﷺ بوحي منفصل عن وحي القرآن، فلم يتطلب الأمر تبديل أي حكم نـــزل في الوحي القرآني.

ويمكن أن يتساءل هنا أحد: إذا لم يحدث أي تبديل ولا تغيير في آيات القرآن الكريم فماذا تعني هذه الآية إذن؟

والجواب: أن المعنى الحقيقي الذي أراده القرآن الكريم على العموم لكلمة "الآية" هو العلامة السماوية، وهذا هو المعنى المراد هنا. فالله تعالى يعلن هنا أن من سنتنا أن نبدل علامة سماوية بعلامة أخرى، لأننا الأعلم أيُّ العلامات والمعجزات أكثر تلاؤمًا مع الظرف والموقف، ولكن الكفار لا يلبثون لجهلهم أن يعترضوا ويقولوا للرسول: إنك مفترٍ، مع أنه ليس في هذا ما يدعو للطعن.

وهذا هو الناموس الإلهي الذي تجلى دائمًا في زمن كل نبي ورسول. ذلك لأن الله تعالى يخبر كل رسول بأنباء إنذارية تكون في الواقع مشروطة بشروط، فلو أن القوم غيروا حالة قلوبهم فقد يلغي الله بعض هذه الأنباء التحذيرية كليةً، ومثاله ما حدث بقوم يونس عليه السلام، حيث أخبرهم بهلاكهم الموشك، ولكنه تعالى ألغى قرار هلاكهم نتيجة توبتهم (يونس: ٩٩). فهذا هو القانون الإلهي العام فيما يتعلق بالأنباء التي فيها إنذار وتخويف، فلو أن أعداء الرسل تابوا فإنه تعالى يلغي الإنذار ويلغي العذاب.

أما الأنباء المتعلقة بغلبة نبي وأتباعه فلا تُلغَى أبدًا، بل لا بد من تحققها؛ غير أن الأمة التي قطع الله معها وعدًا من الوعود إذا قصّرت في تقديم التضحيات أو في الطاعة فمن سنة الله تعالى أنه يؤجّل الوفاء بما وعد؛ ومثال ذلك ما حدث بقوم موسى عليه السلام، حيث خرج بهم من مصر – بحسب وعد من الله عز وجل – ليدخل

بهم الأرض المقدسة فاتحًا، ولكنه ﷻ أجّل تحقيق هذا النبأ لهم أربعين سنة جراء عصيانهم المتكرر لتعليمات نبيهم. ولقد سجل القرآن هذا الوعد الإلهي بلسان موسى كالآتي: ﴿يا قومِ ادْخُلوا الأرضَ المقدَّسةَ التي كتَبَ اللَّهُ لكم﴾(المائدة: ٢٢)، ثم ذكر عصيانَ اليهود لموسى عليه السلام والقرارَ الإلهي بحرمان الأرض عليهم أربعين سنة، في قوله تعالى لموسى: ﴿فإنها محرَّمةٌ عليهم أربعينَ سنةً يَتيهُون في الأرض فلا تَأْسَ على القومِ الفاسقينَ﴾(المائدة:٢٧). مما يعني أن هذا النبأ والوعد قد أُجِّل لبعض الوقت، ولكنه تعالى لم يُلْغه كليةً، لأن الله لا يُخلف الميعاد.

ووفق هذه السنة المتعلقة بعذاب الكفار كلما ألغى الله نبأ من الأنباء أثار الكفار ضجة بأن صاحبهم مفترٍ كذاب. لماذا لم يتحقق ما أنذرَنا به لو كان من الصادقين. وكان أعداء النبي ﷺ أيضًا يثيرون مثل هذه المطاعن، فرد الله عليهم بأننا ننـــزل آيات العذاب لهدف معين وهو الإصلاح، وحين نرى أن أحدًا قد غيّر سيرته وأصلح حاله نبدّل قرارنا السابق، ونلغي عقابه أصلاً، ونُري آية الرحمة في حقه، لأن هدفنا الإصلاح لا الإيذاء. لقد حصل هذا مرارًا في حياة النبي ﷺ، فمثلاً أخبره الله في القرآن عن كفار مكة أنهم لا يؤمنون (البقرة: ٧)، وكان هذا الخبر بمنـــزلة نبأ بعذابهم، ولكن الله تعالى ألغاه في حق كثير منهم ممن تولدت في قلوبهم خشية الله بعد الإنذار، فمنحهم نعمة الإيمان مكان العذاب.

هذه القضية واضحة تمامًا، ومع ذلك يتعثر الناس دائمًا في فهمها، لأنهم يظنون أن إلغاء الوعد كذب، مع أن إلغاء وعد العقاب لا يُعَدّ كذبًا، وإنما إلغاء وعد العطاء يُعَدُّ كذبًا؛ فقد ورد في قواميس العربية: "الخُلْفُ في الوعد عند العرب كذبٌ وفي الوعيد كرمٌ (الأقرب).

إذن فالمراد الحقيقي من هذه الآية أننا نلغي أحيانًا الأنباء الإنذارية، فيعترض على ذلك الكفار، ولكن طعنهم باطل، لأن قرارنا هذا مبني على الحكمة، إذ ليس فيه هضمٌ لحق أحد حتى يكون مثارًا للاعتراض. ونظرًا إلى هذا المعنى ستفسَّر "الآية" هنا بمعنى الأنباء التحذيرية التي مر ذكرها من قبل.

هذا، ونظرًا إلى السياق وترتيب القرآن الكريم يمكن تفسير هذه الآية بمعنى آخر هو أكثر انطباقًا هنا وهو كالآتي: لقد بيّنتُ من قبل أن هذه السورة تعالج موضوع ضرورة الوحي، ومن الأدلة التي سبق أن ذكرها الله بهذا الصدد مجيءُ الرسل في الماضي، كقول الله تعالى ﴿تالله لقد أرسَلْنا إلى أمم من قبلك﴾(الآية: ٦٤)، وقوله تعالى ﴿ويومَ نبعَثُ في كلِّ أُمّةٍ شهيدًا عليهم مِن أنفسِهم﴾(الآية: ٩٠). ولما عجز الكفار أمام هذا البرهان قالوا: حسنًا، إذا كان الرسل قد بُعثوا في الماضي فيجب أن يكون تعليمهم وتعليم الإسلام واحدًا، ولكننا نجد فيما يعلّمنا محمد أمورًا تخالف تعاليم الرسل السابقين؟ فثبت أنه كاذب، إذ كيف يمكن أن يقول الله لهؤلاء الرسل غير ما يقول لمحمد؟!

لقد رد الله على هذا الزعم فقال ﴿واللهُ أعلمُ بما ينـــزِّل﴾.. أي أن اختلاف القرآن مع بعض تعاليم الرسل الأولين لا يعني أنه يعارض تلك التعاليم الحقة، وإنما سببه أن حاجات هؤلاء تختلف عن حاجات أولئك، ولا بأس في ذلك إذ من الممكن أن يعطي الشخص الواحد تعليمات مختلفة لأناس مختلفين بالنظر إلى حاجاتهم المختلفة، ولا يجوز لأحد أبدًا أن يستنتج من ذلك أنه ما دامت الأحكام مختلفة فلا بد أن تكون قد صدرت من جهات مختلفة لا من جهة واحدة. ذلك لأن الأحكام لا تختلف بسبب اختلاف مصدرها فقط، بل تختلف أيضًا بسبب اختلاف المخاطَبين مع كون مصدرها واحدًا، لأنها تصدر بالنظر إلى استعداداتهم المختلفة. إذن فكان من واجب الكفار أن يروا ما إذا كان تعليم القرآن وفق مقتضيات العصر أم لا؟ فإذا توافر فيه هذا الشرط أصبح الاختلاف في تعليمه وتعليمات الأولين دليلاً على أن اللهَ عالمَ الغيب هو الذي أنزل القرآن على محمد ﷺ، وليس أن الذي أنزل الوحي على محمد هو غيرُ من أنزل الوحي على الأنبياء السابقين.

هذا المعنى الأخير يتماشى مع الآية التالية أيضًا، لذلك أراه أصح المعاني المذكورة. فتؤخذ كلمة "الآية" هنا بمعنى الكتاب؛ لأن الكتاب السماوي أيضًا آيةٌ أي معجزة، بل إن كتب الأنبياء هي أكبر معجزاتهم.

الغريب أن هذا الاعتراض لم يزل يتردد على مر العصور حيث لا ينفك الكتّاب المسيحيون يقولون حتى اليوم: إذا كان القرآن يدّعي بأنه مصدِّق لما بين يديه من الكتب السماوية فلماذا يختلف معها إذن؟ فاختلافه مع الكتب السابقة يعني أن محمدًا قد اختلق القرآن من عنده. ولما كان محمد غير ملمٍّ بالأسفار السابقة فلذلك ذكر في القرآن عند اختلاقه أمورًا تتعارض مع ما ورد في تلك الأسفار (تفسير القرآن لـِ "ويري": سورة البقرة الآية ٩٠).

هذا، وقد هرأ بعض المفسرين فقالوا أن هذه الآية إشارة تلك القصة التي تقول أن النبي ﷺ تلا سورة النجم أمام الكفار، فألقى الشيطان بصوت عالٍ كلماتٍ في تلاوته ﷺ!

الحق أن هذه القصة زائفة تمامًا، وسوف نثبت ذلك في محلها إن شاء الله تعالى. ولكن لو سلّمنا جدلاً بصحتها فأيضًا لا تثبُت لـــتلك القصة أية صلة بهذه الآية، إذ يؤكد الله هنا أن الآية التي استُبدلت كانت من وحي الله تعالى، وأنه ﷻ نفسه قام بتبديلها، بينما يعترف أصحاب تلك القصة المنحولة بأن الشيطان هو الذي ألقى آيات من عنده؛ فثبت من اعترافهم أيضًا أن لا علاقة لتلك القصة الملفقة بهذه الآية.

كما أن الآية التالية أيضًا تفنّد زعمهم الباطل، إذ تقدم ردًّا ثانيًا على اعتراض الكفار حيث تقول ﴿قُلْ نزّله روحُ القدس مِن ربك بالحق﴾. والظاهر أنه ليس في قول الله هذا أي ردّ على اعتراض الكفار القائل: لماذا قدّم محمد من قبل تعليمًا ينم عن الشرك، ولماذا غيّره الآن. إن نزول روح القدس بالقرآن يمكن أن يكون دليلاً على كون القرآن محفوظًا محميًا، ولكن ليس فيه أية دلالةً على أن الشيطان أدخل شيئًا من عنده في القرآن ثم قام الله تعالى بإلغاء ما ألقاه الشيطان في القرآن.